شرال ديل

تيودورا

الممثلة المتوجة

تقديم ومراجعة

حبيب جاماتي

الكتاب: تيودورا .. الممثلة المتوجة

الكاتب: شرال ديل

تقديم ومراجعة: حبيب جاماتي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ديل ، شرال

تيودورا .. الممثلة المتوجة/ شرال ديل, تقديم ومراجعة: حبيب جاماتي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ٦٩ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٧٦١ / ٢٠٢٠

تيودورا .. الممثلة المتوجة

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مؤلف الكتاب

ولد ميشل شارل ديل في مدينة ستراسبورج بفرنسا سنة ١٨٥٩. وبعد دروس منوعة ورحلات طويلة، تخصص في دراسة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وتناوله من جميع وجوهه، السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأثرية؛ فاحتل بين المؤرخين مكانة سامية، وأصبحت مؤلفاته مرجعًا يعتمد عليه في كل ما يتعلق ببيزنطة، والدور الذى لعبته الإمبراطورية الرومانية الشرقية –أو إمبراطورية الروم كما يسميها العرب– في تاريخ العالم.

ولقد ظل شارل ديل نحو ستين سنة يبحث ويدقق، ويكتب في تاريخ هذه الإمبراطورية العظيمة، حتى مات في سنة ١٩٤٤م عن خمس وثمانين سنة، تاركا ذخيرة تاريخية خالدة، وكان من عادته ألا يكتب شيئًا إلا بعد التحقق من صحته بالإطلاع على ما يتصل به من الوثائق المطبوعة، أو المخطوطة، وزيارة المتاحف والأماكن الأثرية. ومن هنا أصبح حجة في كل ما يتعلق بالإمبراطورية البيزنطية وأثرها في حياة الشعوب، وفي التطورات التى انتابت الشرق على الخصوص.

ومن أشهر المؤلفات التى تركها: كتابه "درس في الإدارة البيزنطية في إيطاليا"، وقد فصّل فيه تاريخ الحكم البيزنطي في الوقت الذى كانت فيه الإمبراطورية الرومانية الشرقية تسيطر على إيطاليا "مهد الإمبراطورية الرومانية الغربية". وكتاب "رحلات في الأماكن الأثرية باليونان" وقد بسط فيه تاريخ الإمبراطورية البيزنطية من خلال الآثار الباقية من ذلك العهد في

بلاد اليونان "مهد الإمبراطورية الشرقية". وكتاب "إفريقيا البيزنطية" وهو تاريخ الحكم البيزنطي في ليبيا والبلدان المجاورة لها، وقد ضم إليه تاريخ الحكم البيزنطي في مصر منذ انهيار الحكم الروماني حتى الفتح الإسلامي.

وقد أجمع النقاد على أن كتابه "تيودورا إمبراطورة بيزنطة" الذى نقدم ترجمته لقراء العربية هو أوفى وأصدق كتاب صدر عن تلك المرأة العجيبة، التى حكمت الإمبراطورية الرومانية مع زوجها جستنيان.

وقد زار شارل ديل بلدان الشرق العربى التى كانت خاضعة للحكم البيزنطي في وقت من الأوقات، وهي مصر، وليبيا، وسورية، ولبنان، وفلسطين، وآسيا الصغرى، وغيرها. وبحث، ودقق، ونقب في المكتبات الخاصة والعامة، وفي الأماكن الأثرية، والمتاحف، وغيرها، ودوَّن ثمرة جهوده هذه في الكتب التى وضعها عن الحكم البيزنطي في هذه البلدان. وقد كان له في الشرق العربى أصدقاء كثيرون بين علماء الآثار، والباحثين، والمنقبين، وألقى قبل الحرب العالمية الثانية محاضرات عن بيزنطة في مصر، والآستانة، وأثينا، وغيرها من العواصم.

وقد امتازت مؤلفات شارل ديل بأسلوبها السلس، وتعد همزة وصل بين التاريخ والقصة.

مقدمة

"تيودورا".. شخصية من أعجب شخصيات التاريخ. ممثلة خرجت من بيئة وضيعة، ثم ارتفعت إلى أوج المجد، وتربعت على عرش أعظم دولة في عصرها؛ فهى جديرة إذن بأن يتناولها محبو الإطلاع بالدرس والتمحيص.

والكتب التى ألفت عن حياة هذه الإمبراطورة كثيرة، وقد كتبت بمختلف اللغات، ولكن الخيال كثيرًا ما يمتزج في هذه الكتب بالحقائق الثابتة، ومن هنا يصعب على قارئها أن يميز الحد بين الحقيقة والخيال، وبين التاريخ والقصة.

وحياة تيودورا موضوع مرن قابل للتحرير، والتشويه، والابتكار؛ فقد اقترن اسم "الممثلة المتوجة" بسلسلة من الحوادث الرائعة التى اهتز لها العالم في منتصف القرن السادس للميلاد، وانبرى الكتاب يظهرون تيودورا في صورة امرأة فاسدة فاجرة تارة، وفي صورة قديسة تقية طاهرة تارة أخرى، وبقيت الحقيقة تتأرجح بين الصورتين.. فتيودورا لم تكن هذه، أو تلك، وإنما هي مزيج من الصورتين معًا. غير أنها –على كل حال– امرأة عظيمة حكمت أعظم إمبراطورية عرفها العالم في عصرها.

وقد أعجبت بتاريخ هذه الإمبراطورة، فطالعت كثيرًا من الكتب، والأبحاث التى تناولت حياتها بالنقد والتحليل، وكان آخر ما طالعت عنها

كتاب "تيودورا إمبراطورة بيزنطة" للمؤرخ الفرنسي شارل ديل. وما أن انتهيت من مطالعته حتى تبين لى أن كل ما يمكن أن يكتب عن تيودورا– الممثلة، والمرأة، والإمبراطورة– قد تضمنه هذا الكتاب، وأن مؤلفه قد قتل الموضوع بحثًا، فدون الحقائق والوقائع الثابتة، وحقق الحوادث المشكوك فيها، وأشار إلى ما يعد اختلافًا وخيالاً؛ فجاء بحثه خير ما يمكن أن يكتب عن تلك الممثلة المتوجة في جميع مراحل حياتها العجيبة، وعن الأثر الذى تركته في تاريخ الشرق الأدنى.

وعلى هذا نقلت هذا الكتاب إلى العربية، وها هو ذا الآن بين أيدى القراء، ولست أدرى أهناك كتاب آخر بالعربية عن "فكتوريان ساردو" نقلت إلى العربية ومثلت على مسارح القاهرة في الماضي، وقامت فيها الممثلة الكبيرة السيدة فاطمة رشدي بدور تيودورا، وقام الأستاذ حسين رياض أمامها بدور الإمبراطور جستنيان، وأخرج الرواية المرحوم فقيد المسرح العربى عزيز عيد؟.

ولكن فكتوريان ساردو لم يصور على المسرح شخصية تيودورا كما تبدو على حقيقتها من خلال وقائع التاريخ الثابتة، بل أطلق لخياله الخصب العنان، وحشا مسرحيته بالحوادث المثيرة، والمشاهد العنيفة، التى تجعل الرواية بلا شك من أقوى المسرحيات، وإن كانت في كثير من تفصيلاتها لا تتفق والتاريخ الصحيح.

وقد جاء في بعض كتب التاريخ أن تيودورا مصرية الأصل، وجاء في بعضها الآخر أنها سورية من حمص، أو من حماة، أو فينيقية من لبنان، وقد

حاولت عبثًا أن أتبين الحقيقة من خلال المطالعات العديدة، على أن شارل ديل نفسه، وهو الخبير المتخصص في تاريخ بيزنطة، يعترف هو الآخر بأنه عجز عن معرفة مسقط رأسها. وكل ما يمكن قوله في هذا الشأن، بالتأكيد، أنها شرقية هبطت بيزنطة قادمة من أحد الأقطار الواقعة على ساحل البحر المتوسط، أى من آسيا الصغرى، أو من سورية، أو من لبنان، أو من مصر!

وحياة تيودورا صفحة من تاريخ الشرق حافلة بالمآثر، والأحداث، فقد كانت شديدة الاهتمام بالنهضة النسائية، وتحسين حالة الرعية، والقيام بإصلاحات اجتماعية وعمرانية، وقد اختلفت مع زوجها ثم أقنعته بوجوب الاعتماد على محبة الشعب وولائه، بدلاً من الاعتماد على الوقة الغاشمة للبطش بالشعب، وإرهاقه، وإرهابه. ولا عجب فتيودورا هي ابنة الشعب التى أصبحت سيدة الشعب، وقد ظلت بعد تتويجها تشعر بشعور الشعب، وتعمل لإسعاده، وهي فوق ذلك كله أول ملكة فكرت في أن ترفع مستوى المرأة، وتمنحها حقوقًا توازى حقوق الرجال.

وتعتبر تيودورا أول ملكة في التاريخ وضعت قانونًا ينص على وجوب اعتبار المرأة التى تحترف التمثيل متساوية مع أية امرأة أخرى من النساء في أنحاء الدولة. وكانت مهنة التمثيل من قبلها مهنة محتقرة، وهي كذلك أول ملكة حاولت أن تنقذ المرأة من هوة العار والفساد. وقد ترك زوجها مجموعة قوانين عرفت باسمه: "قوانين جستنيان"، ولو أنصف المؤرخون ورجال القانون لسموها "قوانين تيودورا"، فقد كانت الإمبراطورة هي التى أوصت بها إلى زوجها، بل أنها هي التى كتبت بيدها جانبًا منها.

هذا، وأن حياة تيودورا لمليئة بالدروس والعظات، فلا شك أن في مطالعتها فائدة كبرى، بجانب ما فيها من عبرة وتسلية.

معلومات في سطور:

- تيودورا: ممثلة أصبحت إمبراطورة بيزنطة. من سنة ٥٢٧م إلى سنة ٥٤٨م.
- جستنيان الأول: إمبراطور بيزنطة.. تزوج تيودورا قبل ارتقائه العرش، وملكه من سنة ٥٢٧م إلى سنة ٥٦٥م، وعاش ١٧ سنة بعد وفاة زوجته، ولم يتزوج بعدها.
- جستين الأول: إمبراطور بيزنطة من سنة ٥١٨م إلى سنة ٥٢٧م. "عم جستنيان"، كان جنديًا، ثم انتخبه الجيش إمبراطورًا، وأصدر قانونًا خاصًا لكى يسمح لابن أخيه جستنيان بأن يتزوج تيودورا الممثلة.
- أنطونينا: وصيفة تيودورا وكاتمة أسرارها.. وهي زوجة بليزيروس قائد الجيش البيزنطى، وكانت دساسة ماكرة.
- بليزيروس: أعظم قائد في عصره؛ فتح كثيرًا من البلاد التى ضمت إلى الإمبراطورية الرومية، وحالفه التوفيق في كل المعارك التى خاضها، فلم يهزم في معركة منها بقوة السلاح.
- كوميتو: أخت تيودورا.. ممثلة أصبحت أميرة.
- أناستاسيا: الأخت الثانية لتيودورا.. كانت هي الأخرى ممثلة،

وأصبحت أميرة.

- صوفيا: ابنة كوميتو.. زوجتها خالتها تيودورا من ابن أخى الإمبراطور جستنيان، فاعتلت العرش مع زوجها بعد وفاة الإمبراطور.
- جان كابادوكي: وزير بيزنطي كان داهية عصره، ولكنه عارض تيودورا فحطمته.
- نرسيس: خادم تيودورا، ومن خصيان القصر الإمبراطوري في بيزنطة، كان موضع ثقة الإمبراطورة ورسولها إلى العظماء.
- هيباتيوس: مطالب بعرش بيزنطة؛ رفعه زعماء الثورة إلى العرش ولكن تيودورا عادت فأسقطته وسجنته.
- معنى كلمة تيودورا "هبة الهل".
- بيزنطة هي القسطنطينية؛ أنشأها اليونانيون في العصور الخالية، وسماها الإمبراطور "قسطنطين" باسمه في أواخر القرن الثالث للميلاد، ولكنها ظلت محتفظة أيضًا باسمها الأصيل. ولما فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣م على يد مُحَمَّد الفاتح أطلقوا عليها اسم "الآستانة"، أو "أستانبول"، وأصبحت عاصمة الإمبراطورية العثمانية إلى أن نقل كمال أتاتورك مركز الحكم في تركيا إلى "أنقرة" بعد الحرب العالمية الأولى.
- مات الإمبراطور جستنيان "زوج تيودورا" في سنة ٥٦٥م؛ أي قبل نحو مائة سنة من نشوب القتال بين إمبراطورية الروم، والجيوش العربية في

بدء الفتوحات الإسلامية في القرن السابع للميلاد.

- كانت إمبراطورية الروم، أو إمبراطورية بيزنطة، تضم بلاد اليونان، والبلقان، وجانبًا من إيطاليا، وآسيا الصغرى، وسورية، ولبنان، وفلسطين، وجانبًا من بلاد العرب، ومصر، وليبيا، وتونس؛ فكانت أعظم إمبراطورية في عصرها، وأوسع من إمبراطورية الفرس. وقد هادم العرب أطرافها؛ فانتزعوا منها فلسطين، وسورية، ولبنان، ومصر، وإفريقيا، فانكمشت في آسيا الصغرى، ثم في القسطنطينية "أو بيزنطة"، إلى أن جاءتها الضربة القاضية على يد السلطان الفاتح مُحَمَّد الثاني في سنة ١٤٥٣ الميلادية.

- لما فتح العرب مصر، كانت البلاد خاضعة للحكم الرومى البيزنطي، وكان في مصر جيش رومى حاول صد الغزو العربى، ولم يكن لمصر ولا لسورية جيش وطني في ذلك الحين.

- الإمبراطورية الرومية ورثت الإمبراطورية الرومانية في الشرق. فقد انقسمت إمبراطورية "روما" إلى شطرين، عرف الأول منهما بإمبراطورية الغرب، والثاني بإمبراطورية الشرق، وأول إمبراطور "روماني" اتخذ بيزنطة عاصمة لدولته هو "قسطنطين" الذى أطلق عليها اسمه. وكلمة "رومي" أطلقها العرب على البيزنطيين وهي غير معروفة في لغات العرب. وقد جاءت على لسان العرب تحريفًا لكلمة "روماني"، ثم أطلقها العرب، والترك على "اليونانيين" الذين عرفوا منذ ذلك الوقت باسم "الروم"، أو "الأروام".

- **لما اعتنق الإمبراطور قسطنطين الدين المسيحى "في القرن الثالث للميلاد" فرضه على رعاياه، فانتشر في جميع أنحاء الغرب وفي بلدان الشرق التى لم يكن الدين الجديد قد عمها بعد. أما مصر، فكان سكانها جميعاً يدينون بالمسيحية قبل قيام الحكم البيزنطي فيها.**

المترجم

الفصل الأول

الممثلة

في أوائل القرن السادس للميلاد، كانت تيودورا "الممثلة الراقصة" تملأ مسارح القسطنطينية بشهرتها، وتسترعى بفنها وجمالها إعجاب الناظرين على اختلافهم. وقد اختلف المؤرخون الذين جاءوا بعدها في تحدد المكان الذى ولدت فيه، فقال بعضهم أنها ولدت في جزيرة قبرص موطن الربة أفروديت آلهة الجمال عند اليونان، وقال آخرون: أنها ولدت في سورية، أو في جبال لبنان، أو على ضفاف النيل بمصر.

والذى لا شك فيه، أن تيودورا جاءت إلى القسطنطينية مع أهلها، وهي في سنة الطفولة، وأنها نشأت في تلك المدينة بين ألوان الضجيج والفجور.

ومن العجيب أنها ظلت طول حياتها محتفظة بطابعها الشرقى وفيَّة للبلاد الشرقية التى أنجبتها. وبينما كان زوجها الإمبراطور جستنيان الذى ولد في جبال مقدونية العليا، متشبعًا بالروح الغربية الرومانية، كانت هي متشبعة بالروح الشرقية مستمسكة بجميع مظاهر الشرق، وميوله، ومعتقداته، وأوهامه. وكما لم يوفق المؤرخون إلى معرفة موطنها، كذلك لم يوفقوا إلى معرفة شئ يذكر عن الأسرة التى تنتمى إليها تلك الممثلة التى صارت إمبراطورة، وقد تعمدوا فيما بعد –ولعل هذا كان من قبيل

التملق– أن يفتعلوا لها حسبًا ونسبًا يتفقان مع المقام الأسمى الذى بلغته، ومع مكانة الأسرة المالكة في النفوس، فادعى بعضهم أنها ابنة نبيل من أعضاء مجلس الشيوخ، وادعى آخرون أن أباها كان قائدًا من قواد الجيش المعروفين، ولكن الحقيقة والواقع بعيدان كل البعد عن هذا الإدعاء، ولم يبق الآن شك في أن تيودورا ابنة رجل يدعى "أكاسيوس" لا هو بالنبيل ولا هو بالقائد، وإنما كانت مهنته ترويض الدببة في ملعب المدينة.

أما أمها فكانت امرأة لا تحسب حسابًا للأخلاق الكريمة في حياتها، ولا في حياة أفراد أسرتها، شأنها في ذلك شأن كل امرأة عاشت في السرك بين مروضى الوحوش والمهرجين في ذلك الحين.

وكان الملعب "السرك" الذى يعمل فيه أبواها، يضم إلى من فيه من المروضين، والمهرجين زملاء لهما من الممثلين، والحواة، ومحترفي الرقص والغناء.

وفي ذلك الوسط الصاخب البوهيمي الذى نشأت فيه مع والديها، كانت تشترك معها أختها الكبرى "كوميتو"، وأختها الصغرى "أناستاسيا".

وكان مولد تيودورا نحو سنة ٥٠٠ للميلاد. ومات أبوها وهي وأختاها مازلت في سن الطفولة، لم تجاوز كبراهن السابعة من عمرها، وأرادت والدتهن بعد أن ترملت أن تحتفظ بالعمل الذى كان يقوم به زوجها؛ لكى تبقى باب الرزق مفتوحًا أمامها وأمام بناتها الصغيرات، فتزوجت رجلاً آخر، رضا بأن يصبح حارسًا للدببة في الملعب، ومعيلاً للصغيرات الثلاث في البيت.

وكان عليها لتحقيق هذه الأمنية أن تحصل على موافقة "استيريوس" منظم الألعاب، الذى كان زوجها الأول أكاسيوس تابعًا له، ولكن الأمر لم يكن سهلاً؛ إذ كان الذين يشتركون في هذه الألعاب، كما كان الموظفون بالملعب، يشترط فيهم أن يكونوا من المنتمين إلى الفريق الأخضر، أو الفريق الأزرق اللذين تخصص أفرادهما في هذه الأعمال، وتدربوا عليها حتى أتقنوها فاستحق كل منهم أن يرتدى الثوب الخاص بفريقه، وأن يعلق الشارة الخاصة به على صدره.

وكان الأهلون في المدينة قد انقسموا حزبين: أحدهما يناصر الفريق الأخضر، والآخر يناصر الفريق الأزرق. وتبعاً لاشتداد المنافسة بين الفريقين، كانت الخصومة تشتد بين الحزبين المناصرين لهما من الأهلين، بل لقد تعدت الخصومة حدود الملعب، فانتقلت منه إلى ميدان السياسية وغيره، فأصبح كل واحد من السكان معروفًا بأنه من "الخضر"، أو من "الزرق" حسب انتمائه إلى هذا، أو ذاك من فريقي المهرجين، والمروضين، والممثلين في ملعب القسطنطينية.

وكان أكاسيوس "والد تيودورا" من أفراد الفريق الأخضر الذي يتولى رئاسته، وينظم ألعابه، ويدير مصالح أفراده، "أستيريوس" وقد رفض هذا إجابة رغبتها في تعيين زوجها الجديد خلفًا لزوجها السابق في وظيفة حارس الدببة، وعين في هذه الوظيفة رجلاً آخر من محاسيبه، اتضح للمرأة فيما بعد أنه اشترى تلك الوظيفة بالمال!

على أنها برغم ذلك لم تيأس، وأخذت تواصل سعيها في سبيل تحقيق

تلك الرغبة؛ لأن تحقيقها كان يعنى إيجاد المورد الذى تعيش منه هي وبناتها الثلاث، وعلى هذا قررت أن تستثير عطف جمهور المتفرجين واهتمامهم بأمرها وأمر بناتها. وفي ذات يوم بينما كانت مدرجات الملعب تغص بالناس، والأنظار كلها متجهة إلى الحلبة المستديرة حيث تجري المباريات، والمصارعات، وغيرها من فصول برامج التسلية ظهرت على الحلبة وهى تدفع أمامها فتياتها الثلاث، وقد توجت رؤوسهن بالأزهار، فاندفعن إلى وسط الحلبة مسرعات حيث وقفن في خشوع، رافعات أكف الضراعة، والاستعطاف نحو المدرجات المليئة بمختلف النظارة، وفي الوقت نفسه أخذن في البكاء استزاده من التأثير في النفوس.

وكانت الأم تأمل أن يسارع الفريق الأخضر عقب ذلك إلى تلبية رجائها بإيجاد عمل للرجل الذى تبنى صغيراتها، وتولى أمرهن بعد موت والدهن، كما أنها كانت تأمل ألا تقوم أية معارضة من جانب الفريق الأزرق وأنصاره في سبيل عمل إنساني كهذا، ولاسيما بعد ذلك المنظر المؤثر الذي أعدته. ولكن الأمر جاء على غير ما توقعته؛ إذ قابل الفريق الأخضر وأنصاره ذلك المنظر بالضحك وعدم المبالاة، أما الفريق الأزرق فقد رأى في ذلك فرصة سانحو لربح يجنيه على حساب الفريق الأخضر المنافس له، وسرعان ما هب أفراده يؤيدهم أنصارهم داعين المرأة وبناتها إلى الانضمام إليهم، متعهدين بتعيين زوجها الثانى في وظيفة بفريقهم، لا تقل عن الوظيفة التى كان زوجها الأول يشغلها في الفريق الأخضر!

ولم تجد الأرملة بدًا من إجابة هذه الدعوة على الفور، وهكذا انتقلت الأسرة من فريق إلى فريق، أو من حزب إلى حزب، فأصبحت "زرقاء" بعد

أن كانت "خضراء". وكان هذا العرض الذى نظمته لصغيراتها في الملعب على مشهد من النظارة هو أول اتصال لتيودورا بالشعب البيزنطي، الذي قدر لها فيما بعد أن تحكمه وتصرف شئونه كما تشاء، وقد ظلت ذكريات طفولتها مطبوعة في ذهنها طول حياتها، ولم تنس تَنَكُر "الخضر" لها، ولأمها، وأختيها يومذاك قط، فلما أصبحت إمبراطورة قادرة على كل شئ عمدت إلى الانتقام منهم، ونكلت بفريقهم شر تنكيل.

ولقد ترعرعت تيودورا مع أختيها جنباً إلى جنب، في كنف أم لم تكن الفضيلة همها ورائدها، وفي وسط موبوء، بين أناس يبيعون الرذيلة وأناس يشترونها، فضلاً عن فريق ثالث يتاجر بها على حساب هؤلاء وأولئك معًا!

ولما كانت أمهن امرأة عملية، وقد رأت أن بناتها الثلاث يكتسبن مع الأيام مسحة من الجمال، لم تحجم عن أن تدفع بهن الواحدة تلو الأخرى إلى الاشتغال بالتمثيل، وكانت كوميتو أول من ظهرت منهن على المسرح، حيث حازت منذ ظهورها نجاحًا عظيمًا، فكان هذا النجاح الذى لقيته الأبنة الكبرى مما شجع أختها تيودورا على أن تحذو حذوها، فبدأت تظهر إلى جانب على المسرح، في أدوار بسيطة تافهة، كانت لها خير تدريب عملي مفيد على التمثيل.

وفي الوقت نفسه، جعلت تيودورا ترافق أختها في روحاتها وغدواتها، فتؤم المجتمعات العامة والمجالس الخاصة، حيث لفتت الأنظار بسرعة إلى جمالها الناشئ، ورشاقتها، وطلاقة لسانها، وما بدأ عليها قبل الأوان من مستلزمات الأغواء، واللعب بالعواطف والمشاعر.

وكان طبيعيًا أن يؤدى اختلاطها بالناس، في ذلك المجتمع الذى يحوي طلاب اللهو والمتعة، وفي تلك السن، إلى التأثير في سلوكها، فجنحت عن الاستقامة، وفقدت البقية الباقية مما كان لها من طهر وعفاف.

ولما أصبحت قادرة وحدها على الاشتغال بالتمثيل –مثل أختها الكبيرة– ولم تعد بها حاجة إلى مرشد، أو دليل يأخذ بيدها على المسرح وفي المجتمعات والأندية، راحت تبحث عن النجاح والثروة، سالكة الطريق الذى مهده لها ذووها، وساروا فيه من قبلها.

والواقع أنها كانت جميلة بارعة الجمال، مغرية شديدة الإغراء، جذابة ساحرة، وقد أجمع الذين عرفوها وكتبوا عنها، سواء أكانوا من أصدقائها المعجبين، أم من أعدائها المفترين، على أن جمالها من الطراز الأول، وعلى أن الفنانين الذين سجلوا صورتها في تماثيلهم ولوحاتهم لم يستطيعوا أن يرسموا تلك الصورة على حقيقة ما كانت عليه من روعة، وبهجة، وبهاء. وصحيح أنها قصيرة القامة ولكنها على جانب عظيم من الأناقة، والطلاوة، واللطافة.. وإذا كان لون بشرتها يميل إلى الشحوب، فإن هذا كان يزيد في لمعان عينيها الواسعتين، وفي الإشعاع الذى كان ينبعث منهما ساحرًا أخاذًا، وطالما أحرقت به القلوب، وألهبت المشاعر في طيات الصدور!

ولعل الناظر اليوم إلى صورتها الرسمية المحفوظة في مدينة "رأفينا" بإيطاليا، لا يجد فيها شيئًا ينطبق على ذلك الوصف الذى أجمع عليه من عرفوها من الأصدقاء، والأعداء على السواء، ولكنه مع ذلك لن يسعه إلا أن يقف مشدوها أمام عينيها السوداوين البراقتين، اللتين أمتد

إشعاعهما حتى غمر كل وجهها كما يبدو في تلك الصورة!

ولم يكن ذلك الجمال الأخاذ كل ما لدى تيودورا من سلاح تغزو به القلوب، فقد كانت مع ذلك على حظ عظيم من الذكاء، والفطنة، وبراعة التعبير، وسرعة الخاطر، والتفنن في التنكيت، ورواية النوادر المسلية، وقد اكتسبت ذلك كله من ممارسة التمثيل على المسرح، والرقص في الأعياد والحلقات الشعبية، والحفلات الخاصة. كما أنها بطبعها كانت شديدة الميل إلى التهكم والسخرية، ولم تكن تحجم عن إطلاق أقسى العبارات اللاذعة الجارحة كلما سنحت لها فرصة مناسبة، غير أنها كانت سرعان ما تستدرك ما فرط منها في لباقة عجيبة، فإذا بتلك العبارات الجارحة نفسها وكأنها على قلوب من نالتهم بها برد وسلام!

كانت تيودورا تعرف كيف تمزج في حديثها بين الجد والهزل، وبذلك كانت تضحك من تؤلمهم بعباراتها أو تصرفاتها، واستطاعت أن تظل حائزة على رضاهم، مستولية على أفئدتهم في جميع الظروف والأحوال!

وكانت جريئة ليس لجرأتها حد تقف عنده، كما أنها في كثير من الأحيان لم تكن تنتظر حتى يوجه إليها محدثوها آيات المديح والثناء من تلقاء أنفسهم، بل كانت تمهد لهم السبيل، وتشجعهم على ذلك بما تبديه من ضروب التحدي، أو الإغراء!

على أنها برغم عدم مبالاتها بالنواحى الأدبية والخلقية والتقليدية في أحاديثها مع الناس، وبرغم استساغتها كل عبارة تلفظها مادامت تؤدى المعنى الذى تقصده، وتصيب الهدف الذى تريده.. كانت تحمل في صدرها

قلبًا أشبه ما يكون بالأتون المتأجج؛ ذلك لأنها كانت مشبوبة العاطفة دائمًا.. تحب الحب للحب، وتنشد المرح والتسلية حتى في أحرج الأوقات. ولذلك كان لابد من أن تلقى على مسرح الحياة في ذلك المجتمع البيزنطي، مثل النجاح الذى لقيته منذ اللحظة الأولى في ملعب العاصمة، ثم على مسرح التمثيل!

وقد مارست تيودورا إلى جانب التمثيل ضروبًا من الرقص، والغناء، والعزف على الآلات الموسيقية. ولكنها كانت تنفر من أن يقول عنها الناس أنها راقصة، أو مغنية، أو عازفة، بقدر ما كانت ترغب في أن يصفوها بأنها ممثلة.

وكانت تبحث عن الأدوار التمثيلية الناطقة، أو الصامتة، التى تتيح لها –في تأديتها– فرصة الظهور أمام المشاهدين، والسامعين عارية، أو شبه عارية، لكى تتجلى أمام الأنظار بدائع جسمها وتقاسيمه الخلابة!

كذلك كان ميلها شديداً إلى الأدوار الهزلية المضحكة؛ لأنها تلائم طبعها المرح، ومع رغبتها في أن تنقل مرحها من المسرح حيث تمثل إلى القاعة حيث النظارة يرمقونها بأعينهم وأنتباههمّ

وكان البيزنطيون يؤثرون المناظر المثيرة، والمواقف المضحكة، على ما عداها من أنواع التمثيل واللهو. ومن هنا كانوا يصفقون كالمجانين لكما تجلت لهم تيودورا على المسرح بإبتسامتها الساحرة، وجسمها العارى إلا من غلالة شفافة أو بدونها! كما كانوا يضحكون ملء أشداقهم لكل كلمة أو كل حركة تصدر عن تلك الممثلة الجميلة البارعة ذات الصوت الرخيم.

ومن المشاهد التى كان البيزنطيون يؤثرونها على غيرها، رؤية تيودورا على المسرح وقد تعرت من ثيابها وجعلت عصافيرها الأليفة المتنوعة الألوان تنتقل على كتفيها، ورأسها، وذراعيها. ولم يكن هؤلاء البيزنطيون أقل حماسة أمام المشاهد الهزلية التى تظهر فيها تيودورا مع بقية أفراد فرقتها، وتتبادل معهم اللطمات والصفعات، فتضرب بشدة، وتتلقى الضرب بقدم ثابتة!

وليس بعجيب إذن.. إن كان نجاح تيودورا، في علاقاتها الخاصة وفي داخل بيتها، مع المعجبين والمريدين، لا يقل عن نجاحها على المسرح إن لم يزد عليه!

ومما يذكر أنها كانت فوق ذلك كله كريمة سخية، تنفق المال بلا حساب ما دام المال متوفرًا بين يديها، ويقول عنها المؤرخ جيبون "أن كرمها كان مضرب الأمثال في بيزنطة، وأن مأدبها الفاخرة كانت أهم ما استرعت به الأنظار في حياتها الخاصة، كما كانت مضرب الأمثال في أحاديثها الجريئة، وتعدد عشاقها!".

ووصفها مؤرخ آخر بأن هدفها الأول على المسرح وخارجه كان حمل الناس على الإعجاب بجمالها وخفتها، ولهذا كانت لا تكاد تنتهى من تمثيل دور على المسرح، حتى تدعو زملاءها وأصدقاءها؛ لترقص أمامهم خلف الكواليس "رقصة البطن" التى تجيدها، على توقيع تصفيقهم وغنائهم. وكانت تفعل مثل هذا في بيتها، بعد العشاء أو فى أثناء السهرة، لا رغبة في أرضاء المدعوين فقط، بل لكى تشبع رغبتها أيضاً في انتزاع الإعجاب

والتصفيق ممن يشاهدونها حينذاك حتى من الخدم والأتباع!

وقد عرفت تيودورا بأنها خصبة المخيلة، بارعة في رواية النوادر، واسعة القدرة على الابتكار، دائمة الاهتمام بإدخال السرور إلى نفوس سامعيها ومدعويها أيًا كان عددهم، وأيًا كان نوعهم، ولكن هذا التحرير من كل قيد، وذلك الانغماس في الشهوات، جعلا فريقاً من المجتمع البيزنطي يأنف من مجالستها، ويتهرب منها. فقد ذاعت شهرتها بسرعة كممثلة وغانية، ولكن شهرتها هذه ما لبثت أن امتزجت بشئ من سوء السمعة، فصار كثيرون من البيزنطيين المحافظين يتأففون من الاتصال بها، والأقتراب منها. ولكنها كانت لا تقيم وزنًا للرأى العام، وما يقوله عنها أولئك المتأففون الحذرون، ولم يكن ليهمها إلا أن تنعم بمباهج الحياة، وأن تشرك من حولها في هذه المباهج، غير عابئة بنقد الناقدين، وعتب العاتبين. فلا يهمها أن يغضب عليها فريق من المتمسكين بأهداب الفضيلة، ما دامت الجماهير تصفق لها، وما دام العشاق يزداد عددهم حولها على مر الأيام.

غير أن هناك حادثًا وقع لها نغص عليها عيشها بضعة أشهر، وأوشك أن يترك في حياتها أثرًا مزعجاً. فقد حملت ووضعت طفلاً، وخشي والد الطفل أن تعمد الأم إلى قتله، فأخذه منها، وسافر به إلى بلاد العرب حيث أرسل في مهمة رسمية. وهكذا تخلصت تيودورا من ابنها الذي كرهته منذ اليوم الذى رأى فيه النور. وقد عاد ذلك الابن فيما بعد، وحاول استغلال نفوذ أمه بعد أن أصبحت في أوج الشهرة والمجد.

ولم يكن هذا الحادث درسًا كافيًا لتيودورا، فقد تكررت المأساة، ووضعت مرة أخرى طفلة، لم تقف منها ذات الموقف الذى وقفته من الابن، بل عنيت بها، وظلت تعطف عليها بعد أن كبرت.. وكان ذلك في سنة ٥١٧م. ولم تكن تيودورا قد جاوزت بعد سنتها الثامنة عشر، ولكنها كانت في سماء القسطنطينية "عاصمة الإمبراطورية البيزنطية" نجماً يتلألأ ويبهر الأنظار.

سلطان الشياطين

كانت القسطنطينية حين بدأت تيودورا تظهر في مجتمعاتها، في أوائل القرن السادس للميلاد، مدينة موبوءة يعم الفساد جنباتها، فالدعارة منتشرة جهارًا نهارًا. والبيوت الخاصة بها منتشرة في جميع الأحياء يلا تمييز، حتى أن بعضها كان يقع بجوار الكنائس والأديرة. وتجار الرقيق الأبيض الذين يقومون بجلب النساء إلى تلك البيوت يطوفون أرجاء الإمبراطورية الشاسعة، ويمنون فرائسهم التعسات بالأماني، والآمال، والوعود الخلابة، ملوحين لهن بالنقود، والثياب الفاخرة، والجواهر البراقة. وكثيراً ما وقعت في حبائل أولئك الشياطين الأشرار فتيات لم يجاوزن العاشرة من العمر، ونساء من حرائر العائلات، فضلاً عن الجواري والخادمات، مدفوعات جميعًا بدافع الحاجة، أو الرغبة في حياة أخرى. وهكذا كان أولئك النسوة يتجهن إلى العاصمة، حيث يرتبطن بعهود ومواثيق مع القائمين بإدارة تلك البيوت، وبذلك يتعذر عليهن أن يتركنها إذا ما أردن ذلك فيما بعد. وما أشبه القسطنطينية، وقد عمها الفساد، وانتشرت فيها الدعارة خلال تلك

المرحلة من مراحل تاريخها، بمدينة سدوم التى أحرقها الله بالنار اقتصاصًا من سكانها الذين انغمسوا في المحرمات، والموبقات. وكان القليلون الباقون على وفائهم لمبادئ الدين وتعاليمه من أهل القسطنطينية يأسفون لهذه الحالة، ولكنهم لا يملكون أن يفعلوا شيئًا لعلاجها. ولئن كان هؤلاء لم ينصرفوا إلى الغواية، والضلال خوفًا من غضب السماء، فإنهم من ناحية أخرى لم يكونوا يحجمون عن ممارسة الألعاب المختلفة، وحضور مبارياتها متحمسين لهذا الفريق أو ذاك؛ ولذلك كان ملعب القسطنطينية ملتقى جميع الطبقات. وفي الوقت نفسه كانت أماكن اللهو والميسر تعج بروادها من الجنسين، وكان الكثيرون يقامرون بثرواتهم كلها بلا حياء ولا وجل؛ إذ استشرى داء المقامرة في المدينة الموبوءة، فلم يسلم منه حتى بعض رجال الدين أنفسهم!

ولم يكن ذلك عجيبًا في الوقت الذى كان فيه "جستنيان" ولى عهد الإمبراطورية نفسه يصرح بقوله: "لابد لنا من ألعاب مثيرة لتسلية الشعب". وكان الكبراء جميعًا يتسابقون إلى تشجيع جميع تلك الألعاب بلا استثناء، حتى صارت تجري في نطاق المساكن والقصور، فضلاً عن الملعب الكبير الذي انفقت الحكومة مبالغ طائلة لتشييده، وإعداده، وتنظيم الألعاب فيه، بحيث يجد السكان فيه على مدار السنة كلها ما يشفي غليلهم، ويشبع نهمهم.

وفي هذا الملعب الكبير بالعاصمة كانت تنظم المباريات، والمسابقات على اختلاف أنواعها، كسباق المركبات، وسباق الخيل، وصيد الحيوانات، والمصارعة بين الرجال، أو بينهم وبين الوحوش الكاسرة، والتمثيل الناطق

والصامت، وحلقات الرقص، وحفلات الغناء والموسيقى، وكل ما يمكن أن تتفتق عنه الأذهان لتسلية الشعب البيزنطي، وحمله على المراهنة، والتصفيق، والهتاف.

وكثيرًا ما كانت تقام في الملعب –ولاسيما في أول كل عام– حفلات تستمر سبعة أيام بلياليها بلا انقطاع.. وكان أحد هذه الأيام السبعة يطلق عليه اسم "يوم بائعات الهوى". وفيه تخرج إلى الملعب جميع النسوة اللائي تضمهن بيوت الدعارة بالمدينة، حيث يشتركن في الألعاب والمراهنات، فيتضاعف تبعًا لذلك عدد رواد الملعب من جميع الطبقات.

وكان الإمبراطور نفسه يشرف إشرافًا مباشرًا على تنظيم تلك الألعاب، فهو يريد أن يكون هناك دائمًا ما يدفع الشعب إلى التردد على الملعب؛ لأنه يرغب في استمالته، واكتساب عطفه، وكان لا يبخل بشئ في هذا السبيل. وقد حدث مرة أن نظم الإمبراطور بنفسه حفلة عامة شاهد فيها الجمهور الهائج عشرين أسدًا، وعشرين نمرًا تتناهش وتتقاتل، ثم وزع الإمبراطور في نهاية تلك الحفلة خيولاً مطهمة على اللاعبين الذين فازوا في المباريات، وأقام مأدبة هائلة جعل الدعوة إليها عامة، بحيث يسمح بحضورها لكل من شاء من أفراد الشعب. واستمرت هذه المأدبة الكبرى ثلاثة أيام بلغ ما أنفقه الإمبراطور خلالها أربعة ملايين من القطع الذهبية.

وكذلك كان أهل القسطنطينية جميعًا يهرعون إلى دار التمثيل، أو إلى "السرك" في ملعب العاصة، لا فرق في ذلك بين النبلاء وعامة الناس، ولا بين الرجال والنساء، أو بين الشيوخ والشبان.

وصحيح أن التقاليد حتى ذلك العهد كانت لا تبيح حضور تلك الحفلات الصاخبة الإباحية لرجال الدين ونساء الأسر النبيلة، ولكن الكثيرين والكثيرات من هؤلاء وهؤلاء كانوا يحضرونها بملابس تنكرية. كما كانت القليلات اللائي يتورعن عن حضورها، يحرصن على الاشتراك في المراهنات وهن قابعات في بيوتهن؛ ذلك لأن الاهتمام كان عامًا في أنحاء الإمبراطورية كلها بكل ما يتعلق بالألعاب والمسابقات، ولم يحدث في أيَّة حقبة من حقب التاريخ أن بلغ اهتمام شعب من الشعوب، بما يجرى في الملاعب، ما بلغه اهتمام الشعب البيزنطى في أوائل القرن السادس خلال عهد الإمبراطور جستنيان، حتى لقد فاقت هواية البيزنطيين للألعاب هواية أسلافهم الرومانيين.

وكان الفائزون في المباريات من سائقي المركبات، وغيرهم يصبحون ملوك الساعة في المدينة لمدة يوم، أو أكثر. ولم يكن الإمبراطور نفسه يأنف من التقدم إليهم ليصافحهم، ويهنئه على فوزهم، في حين كانت الحكومة تقيم لهم النصب والتماثيل، وكان الشعراء ينظمون في مديحهم القصائد، ورجال العلم والأدب يعلنون في تأكيد أن هؤلاء الفائزين هم زينة الحياة، ولولاهم لبدت خالية من البهجة والحبور.

أما الجمهور فكانت حماسته لهم لا تقف عند حد، وكان أفراده عادة ينقسمون إلى حزبين اثنين: كل منهما يتحمس لأحد الفريقين الكبيرين المتنافسين في مختلف الألعاب؛ أي الفريق الأخضر، والفريق الأزرق.. وهكذا بقيت القسطنطينية بضعة قرون، وأهلوها منقسمون على أنفسهم بين خضر وزرق، وتناحرهم يشتد يومًا بعد يوم لهذا السبب، حتى لكأن

بينهم عداوة قديمة لا يخمد لها أوار.

ولم يكن هناك بد لتنظيم تلك الألعاب والإشراف على إدارة الملعب من عدد كبير من الموظفين، والخبراء، والفنيين، والخدم، وغيرهم. فكان هناك الشعراء المكلفون بنظم القصائد والأغاني التي ينشدها اللاعبون لتمجيد الإمبراطور، وهناك الموسيقيون المكلفون بتلحينها، وعزفها، والمغنون، والراقصون، والمهرجون الذين يقومون بتسلية الجمهور أثناء المباريات، أو بين الفصول. وهناك الممثلون، والمخرجون، ومديرو المسارح، ثم الموظفون المكلفون بحفظ النظام داخل الملعب، وعلى المدرجات، وإجلاس المشاهدين في أماكنهم، ومراقبة الدخول والخروج، وفتح الأبواب والمنافذ لأبطال المباريات من البشر والحيوان على السواء، فضلاً عن المكلفين بحفظ الثياب، والدروع، ومعدات اللعب، والأكاليل التى توضع على رؤوس الفائزين، وفضلاً عن حراس الإسطبلات ومروضي الوحوش، والمدربين، والخياطين والخياطات، والحوذية الذين يقودون المركبات في السباق داخل الحلبة الواسعة، وفي شوارع المدينة نفسها في بعض الأحيان.

وهكذا كان في داخل الملعب وحوله أقوام يعدون بالمئات بل بالآلاف، مهمتهم التنظيم والإخراج، وكثيرًا ما كان ينضم إليهم فريق آخر من الناس: هم المغامرون، والانتهازيون من السماسرة، وأصحاب الغايات، وطلاب الربح والتسلية على حساب غيرهم.. وبائعات الهوى الساعيات إلى اصطياد الأغنياء، وأبناء الذوات من طلاب المتعة.

وطبيعي أن الأحاديث في مجتمعات القسطنطينية ومنتدياتها في ذلك

العهد كان محورها الذى تدور حوله غالبًا هو الملعب وما يجرى فيه. فجميع الناس من مختلف البيئات كانوا يتبادلون الآراء، والأفكار، والمراهنات حول هذا، أو ذاك من اللاعبين، ويتحدثون عن الحوذي الفائز في ذلك اليوم، أو عن الممثلة التى حازت الإعجاب في المسرحية الأخيرة، ويتكهنون بما سوف يحدث في الحفلة القادمة. حتى أكثر الناس وقارًا لم يكونوا يأنفون من الدخول في مناقشات حادة حول أصل هذه اللعبة أو تلك، أو حول فائدة الرياضة، والمقامرة، وضررهما، وكثيرًا ما كان المتحدثون يتسابقون إلى التنبؤ بما ينتظر حدوثه في المستقبل القريب، استنادًا إلى فوز "الزرق"، أو إلى فوز "الخضر" في آخر مباراة.

وكان المفهوم حينذاك أن اللون الأخضر يرمز إلى الأرض ومروجها، فإذا فاز الخضر، فمعنى ذلك أن السنة الجديدة ستكون سنة خير وبركة، وأن موسم الحصاد سيكون محققاً للآمال. أما اللون "الأزرق" فهو يرمز إلى مياه البحر، فإذا فاز الزرق فمعنى ذلك أن السفن ستكون موفقة في رحلاتها في العام الجديد، وعلى هذا الاعتبار كان الزراع جميعًا من حزب الفريق الأخضر، وكان رجال البحر من حزب الفريق الأزرق.

وكان الملعب معرضًا للأزياء، فهو من هذه الناحية يشبه ميادين السباق في العصر الحاضر. والشبان من "أبناء الذوات" الذين يؤمونه يفتنون في ابتكار أزياء عجيبة ليلفتوا بها الأنظار إليهم. فهم يرخون لحاهم كما يفعل الفرس، أو يطلقون شواربهم كما يفعل الغاليون، أو يحلقون رؤوسهم ووجوههم مثل الرومانيين، وهم يقتبسون أزياء ملابسهم عن الرومانيين، أو الفرس، أو قدماء المصريين، ويتجملون، ويتعطرون، ويضعون

الحلي في معاصمهم، وأصابعهم، وآذانهم، ثم أنهم كانوا دائمًا يتقلدون سيوفًا بحدين.

وكان أولئك الشبان المتحذلقون يخرجون ليلاً إلى شوارع المدينة حيث يتعمدون إزعاج المارة، ولا يترددون أحيانًا في الاعتداء عليهم، وسلبهم نقودهم، وحليهم، واغتيالهم إذا أبدوا أية مقاومة.

ولقد أصبح "الزرق" أصحاب الحظوة منذ وفاة الإمبراطور الستاسيوس، واعتلى "جستين" العرش؛ ذلك لأن الأسرة المالكة الجديدة كانت تحمي الزرق، وتشجعهم على المضب في مناواة الخضر. وكان الشرطة لذلك لا يحركون ساكنًا في حالة اعتداء واحد من الزرق على واحد من الخضر، مما شجع الأشقياء وقطاع الطرق على الإنضمام إلى الفئة التى يشملها الإمبراطور بعطفه وحمايته؛ لكي يتمكنوا من المضي في أعمالهم الإجرامية في مأمن من اقتصاص العدالة.

وأمام هذا التهديد الدائم الذى تعرض له الخضر، لم ير هؤلاء بدًّا من تأليف عصابات مسلحة تتولى الدفاع عنهم، وعن أنصارهم ومريديهم، وهكذا اضطرب الأمن في المدينة، وأصبحت حياة السكان في خطر دائم.

ولما رأى السكان الهادئون تفاقم الحالة إلى هذا الحد المزري، صاروا يخافون الخروج من بيوتهم ليلاً، وصار الأغنياء يرتدون ملابس بالية قديمة، ويتحلون بجواهر مزيفة من الزجاج؛ لكى يأمنوا شر أولئك الأشقياء وقطاع الطرق.

وعم الإرهاب المدينة شيئًا فشيئًا، ولم يعد الناس يتساءلون في حالات

الاعتداء عليهم: هل المعتدون ينتمون إلى الزرق أم إلى الخضر؟ بل لم يعد المعتدون أنفسهم يهتمون بالتحقق من شخصيات المعتدى عليهم ليعرفوا أهم من الحزب الذي ينتمون إليه، أم من الحزب الآخر!

واغتنم المدينون فرصة تلك الفوضى الشاملة، فأخذوا ينتزعون بالقوة من دائنيهم مخالصة بأنهم دفعوا الدين، وصار العبيد يرغمون أسيادهم على عتقهم، والأبناء يبتزون الأموال بالقوة من آبائهم، والعشاق يخطفون عشيقاتهم، وطلاب المتعة يرضون شهواتهم في ظل اختلاط الحابل بالنابل.

وكان من له عدو يخشاه، يعمد إلى المرتزقة من القتلة المأجورين ليخلصوه منه. وبلغ من جرأة اللصوص أنهم أصبحوا يقتحمون الكنائس، ويزهقون فيها الأرواح، وصار الناس يتناقلون في مجالسهم أخبار تلك الاعتداءات المتوالية، ويبدون إعجابهم بالقاتل الذى يقضي على غريمه بضربة واحدة، ويعدون ذلك نوعًا من البطولة، خصوصًا إذا تمكن القاتل من الهرب دون أن يعرف شخصيته أحد.

وكما كان الشرطة لا يتدخلون في حادثة إلا لمساعدة الزرق ضد الخضر؛ إرضاء لرغبة الإمبراطور الجديد، كان القضاة من ناحيتهم لا يحكمون على مذنب إلا إذا كان من "الخضر"، أما "الزرق" فنصيبهم البراءة دائمًا؛ لأن القضاة حريصون على الاحتفاظ بمراكزهم، وهم يعلمون أن الإمبراطور وأسرته يحمون الزرق.

وقد حدث مرة أن كانت امرأة تستعد لركوب سفينة مقلعة إلى الشاطئ الآسيوى، ومعها زوجها، فرآها فريق من الشبان وراقت في

أعينهم، فأرغموها على الصعود معهم إلى قارب كانوا فيه، وعبثًا حاول الزوج إنقاذ زوجته من خاطفيها، ولم تجد المسكينة وسيلة للخلاص غير الإلقاء بنفسها في البوسفور، فغرقت تحت أنظار الزوج العاجز.

وتكررت أمثال هذه الحادثة من غير أن يتمكن الباقون على قيد الحياة من الاقتصاص من الأشرار الذين سببوا موت زوجاتهم أو بناتهم؛ لأن أولئك المجرمين كانوا ينتمون إلى فئة الزرق صاحبة الحظوة لدى أصحاب السلطان.

وقليل من القضاة والشرطة هم الذين كانوا يجدون في أنفسهم الشجاعة لكي يطبقوا العدالة على الزرق المشمولين بعطف الإمبراطور وحمايته، وقد جرب محافظ القسطنطينية ذلك، فدفع الثمن غاليًا، وكان هذا المحافظ –واسمه "تيودوث"– معروفًا بأنه رجل نزيه، شديد التمسك بواجبات وظيفته، فاتفق مرة أن قتل في المدينة رجل يدعى "هيباتوس" من كبار الأغنياء، وأصحاب النفوذ بها، وكان مصرعه في داخل كنيسة أيا صوفيا، وأحدثت هذه الجريمة المروعة دويًا في العاصمة، وكان جستنيان ابن أخ الإمبراطور، المشهور بعطفه على الزرق، مريضًا طريح الفراش، فتمكن أهل القتيل وأصدقاؤه وهم من الخضر، من الوصول مباشرة إلى الإمبراطور جستين، وعرض الأمر عليه، ومطالبته بالاقتصاص من القتلة. فدعا الإمبراطور محافظ المدينة إليه، وأمره بأن ينزل عقابًا صارمًا بالذين قتلوا هيباتوس، أيًا كانت مكانتهم، وما كاد المحافظ النزيه يسمع هذا الأمر حتى سارع إلى اعتقال الجناة الأشقياء، واعتقال الذين حرضوهم على القتل، ثم شنق بعضهم، ومن بين هؤلاء رجل يدعى "تيودوز تسيكا" من الأغنياء،

وأصحاب الحول والطول. فلما شفي ابن أخ الإمبراطور من مرضه، عمد إلى الثأر لأصدقائه، والانتقام من المحافظ، فقبض عليه، وقدمه للمحاكمة أمام مجلس الشيوخ، فحكم عليه بالطرد من منصبه والنفى إلى بيت المقدس، حيث اضطر إلى دخول أحد الأديرة؛ خوفًا على نفسه من خناجر الزرق التى كانت تترقبه.

وهكذا كانت الخلافات المنبعثة من داخل الملعب تمتد إلى الخارج، وتحدث في المدينة اضطرابًا، وقلقًا، وفوضى. ولم تمر بضعة أعوام حتى تطورت هذه الحالة إلى ثورة جامحة.

وفي أثناء ذلك كان المنجمون، وضاربو الرمل، ومدعو النبوة، وقراءة الغيب، ومعرفة ما يخبئه المستقبل في طياته يمرحون في العاصمة، ويزيدون الأفكار بلبلة، والنفوس اضطرابًا، ويقضون على البقية الباقية من التوازن المادي، والأدبي، والروحي.

وقد حدث مرة عند "الباب الذهبي" أن وقفت بين الناس امرأة شاردة النظر، محلولة الشعر، وجعلت تصيح متنبئة بأن مياه البحر سوف تطفو بعد ثلاثة أيام على البر، فيحدث طوفان جديد يغرق العالم. وصدق الناس هذه النبوءة، وهرعوا إلى الكنائس حيث ظلوا فيها ثلاثة أيام يصلون لله في انتظار الكارثة التى اعتقدوا أنها واقعة لا محالة.

وحدث مرارًا وتكرارًت أن أدعى المنجمون، وهم يتظاهرون بقراءة الغيب مستعينين بحركات النجوم والكواكب، أن كوارث ماحقة سوف تقع؛ إيذاناً بقرب نهاية العالم، وحلول يوم القيامة، فكان الجمهور يصدق تلك

النبوءات، وينطلق الناس في الشوارع مذعورين خائفين، أو يلجئون إلى الصلاة في الكنائس طالبين من الله المغفرة عن خطاياهم، وسقط كثيرون في ميادين العاصمة مغمى عليهم، ظنًا منهم أن أشباحًا مرعبة تطاردهم، وعمد آخرون تحت تأثير تلك الموجة من النبوءات المزعجة إلى هجر العالم، ودخول الأديرة للترهب، والتنسك، والانصراف إلى العبادة تكفيرًا عن ذنوبهم. وتنازل بعض الأغنياء عن أموالهم، وأملاكهم للكنائس للغرض نفسه، وصار كل بيزنطي يرغب في ألا يدركه الموت وهو في حالة الخطيئة غير حائز على رضا السماء. وكان الذعر يستمر أحيانًا بضعة أسابيع قبل أن يستطيع الإمبراطور تهدئة الخواطر، وإعادة الطمأنينة إلى النفوس، بل كان الإمبراطور نفسه في بعض الأحيان يشاطر رعيته مخاوفها وذعرها!

نعم أن أصحاب العقول الراجحة، والإيمان الثابت كانوا يقاومون هذا التيار، ويرون أن على الإمبراطور أن يقضي على تلك الترهات بالقبض على الدجالين، وحبسهم، أو إعدامهم. ولكن الرأى العام كان قد تسمم بتلك النبوءات الكاذبة، واستولت الخرافات على عقول الناس، فتعذر على العقلاء وضع حد لتلك الحالة المقلقة.

وكانت النساء طبعًا أقرب إلى الاندفاع في هذا التيار من الرجال، فعمدت كثيرات منهن إلى الأعمال السحرية، واستخدام الكلام، والتعاويذ، وما شابهها؛ للاحتفاظ بزوج شارد، أو بعشيق متقلب. فأصبحت المرأة تعتمد على المنجمين، والسحرة، والمشعوذين أكثر مما تعتمد على جمالها، أو فضائلها.

أما تيودورا، فقد جارت عصرها في هذا المضمار، وراحت تعد المساحيق السحرية، وتمزجها بالشراب اعتقادًا منها بأن هذا يكفل لها بقاء عشاقها على وفائهم لها، وتعلقهم بها، وكانت تساعدها في هذا العمل اثنتان من صديقاتها ورفيقات لهوهاهما: "أندارو" الشقراء، و"كريزومالو" السمراء. وكانت النساء الثلاث يعتقدن أن الشياطين تساهم معهن في الاحتفاظ بسيطرتهن على الرجال، وهكذا باتت تيودورا تنتظر ارتقاء القمة بمساعدتهم.

عاقبة التوبة

كانت تيودورا تحب المرح، كما تحب المال حبًا جمًا، وقد جمعت ثروة لا يستهان بها، ثم حدث أن أحبت شابًا سوريًا يدعى "هيسيبولى" أصبح عشيقها المفضل، وأشد المعجبين بها سلطانًا عليها. وكان يشغل وظيفة في دوائر القصر الإمبراطوري، وله حظوة لدى الإمبراطور جستين، فوقع عليه الاختيار ليشغل منصب الحاكم في ولاية ليبيا بإفريقيا التى كانت تشمل خمس مدن كبيرة بضواحيها، وقررت تيودورا أن تصحب عشيقها إلى مقر منصبه الجديد. ويظهر من هذا أنها كانت قد ملت المغامرات الغرامية العابرة، وفكرت في أن تحتل مكانًا ثابتًا بالقرب من رجل واحد، إما كزوجة، أو كعشيقة.

ولكن هذه القصة الغرامية الجديدة لم تدم أيامها طويلاً، فقد اختلف العاشقان ولم يعرف سبب الخلاف بينهما. وكان هيسيبولى شرسًا قاسي القلب، فطرد تيودورا من بيته بعد أن أشبعها سبًا ولكمًا، فهامت على وجهها، وتنقلت في بلدان الشرق مدة من الزمن، وهي في حالة مزرية. وقد

رُئيت في الإسكندرية، وإنطاكية، وبيروت، وحمص، وغيرها من المدن المصرية، والفينيقية، والسورية، تمارس مهنتها، وتحترف الرذيلة لتضمن رزقها. ويقول المؤرخ "بروكوبس" الذى كتب تاريخ تيودورا وحشاه بالحكايات المعيبة عنها: "أن الشيطان أراد ألا يجهل بلد واحد في العالم من هي تيودورا الفاسقة" وكان ذلك في سنة ٥٢١م.

ويبدو أن إقامة تيودورا مدة طويلة بمصر، وسورية، وفينيقيا كان لها أثر بعيد في تكييف حياتها، وتوجيهها في المستقبل. ففى ذلك العهد كانت الإسكندرية مدينة كبيرة ذات تجارة واسعة، يرحل تجارها إلى الصين، والهند، وسيلان لجلب الحرير، والتوابل، والحجارة الكريمة وغيرها. كما كانت مستودعًا تصدر منه إلى موانئ البحر المتوسط حنطة وادى النيل، ومنتجات الشرق الأدنى، وفضلاً عما عرفت به في ذلك العهد من أنها مركز من أهم مراكز التجارة في العالم، ومدينة اللهو، والبذخ، والترف، والأناقة بفضل ما فيها من الثروات الضخمة، ومختلف الغانيات الجميلات اللواتي حفظ التاريخ أسماءهن، مثل تاييس، وكريزيس وغيرهما. كانت إلى ذلك كله قد اشتهرت منذ القرن الرابع للميلاد بأنها إحدى عواصم المسيحية، ومعاقلها الكبرى بجانب كونها عاصمة مصر.

ولم تبلغ المشاحنات المذهبية، والخلافات الدينية، والمجادلات القائمة على التعصب حينًا، وعلى التراخى حيناً آخر ما بلغته في الإسكندرية من شدة، وعنف، ومبالغة.

على أن سكان الإسكندرية كانوا يمجدون ذكرى الأبرار الذين أنشأوا

الأديرة في صحاري مصر، وأشاعوا فيها حياة الرهبنة، من أمثال القديسين أنطون، وباخوم، وشنودة، وسرابيون. فقد أحاطت الأديرة وأماكن العبادة مدينة الإسكندرية، وملأت ضواحيها عددًا من الرهبان، والمتعبدين، والزهاد الذين هجروا العالم ليعيشوا في الصحراء الغربية، حيث الأديرة، وصوامع العبادة التى لا عدد لها، كبيراً إلى حد جعل العالم المسيحى يطلق على تلك الصحراء اسم "صحراء القديسين".

ولما نزلت تيودورا في مصر،؛ للبقاء فيها مدة من الزمن كانت البلاد في حالة قلق، واضطراب من جراء ذلك العراك الديني الذى أشرنا إليه، والذي لم تخفف من غلوائه جهود المتعبدين، والنساك الداعين إلى السلام، والوئام، بل إن ذلك العراك ما لبث أن امتد إلى الأديرة، وأمكنة العبادة نفسها؛ وذلك لأن الإمبراطور جستين، الذى كان في ذلك الوقت جالساً على عرش بيزنطة –ومصر ولاية بيزنطية– كان شديد الرغبة في إزالة الخلاف الذى أدى إلى انفصال الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية، أو بعبارة أخرى عن سلطة البابا في روما. وقد بذل جستين جهده في هذا السبيل، وراح يضغط على رؤساء الكنيسة التابعين له في أنحاء إمبراطوريته الشاسعة، لحملهم على مجاراته في التساهل مع روما، والانقياد إلى توجيهها. ولكن رؤساء الكنيسة الشرقية عارضوه، وقاوموه، ورفضوا الإذعان لأوامره، فجعل يضطهدهم، ويشردهم، ويسجن بعضهم، واضطر كثيرون منهم إزاء ذلك إلى الهرب، والالتجاء إلى مصر حيث حماهم بطريرك الإسكندرية "تيموثاوس"، وأنزلهم بالأديرة المصرية حول الإسكندرية، أو في الصحراء الغربية.

ولم تتناول الاضطهادات رجال الدين وحدهم، بل تعدتهم إلى العلماء، والأثرياء، ورؤساء العائلات النبيلة، وسيداتها؛ فكل من عارض الإمبراطور، أو تمرد على إرادته كان يناله شئ من نقمته، وهكذا فر أيضًا من سورية إلى مصر عدد كبير من عليه القوم، بينهم كثيرات من النساء، ولجأ هؤلاء جميعًا إلى الأديرة حيث ظلوا محتفظين بعقيدتهم، رافضين الانقياد لرغبات الإمبراطور.

وفي ذلك الجو المضطرب، وتلك الظروف الحرجة هبطت تيودورا أرض مصر شريدة طريدة. فلم يكن عجيبًا أن تدفعها طبيعتها الجامحة إلى أخذ نصيبها من الجدل الذى شغل الناس كبيرهم وصغيرهم في مدينة الإسكندرية عاصمة البلاد.

وقد اتصلت تيودورا بالبطريرك تيموثاوس، فرحب بها، ولا شك في أنه حاول التأثير في نفسها؛ ليحملها على العدول عن سيرتها، وتحسين سلوكها. ولا شك أيضًا في أن تيودورا قد تأثرت بوعظ ذلك الشيخ الجليل التقي الورع، وأنها حاولت إصلاح ما في نفسها من مفاسد. وقد ظلت طول حياتها تقدس اسم ذلك الشيخ الذى كانت تتحدث عنه بإجلال، وتقول: "إنه صاحب فضل على لن أنساه"، وكانت تلقبه كلما ذكرت اسمه بلقب: "أبي الروحي".

ولما شاءت الأقدار –فيما بعد– أن تتولى تيودورا شئون الدولة الرومية، وتدبير أمورها، وتنظيم كنيستها، أظهرت في ذلك براعة ومهارة، ومعرفة تدل على أن الدروس التى تلقنتها عن البطريرك الإسكندري لم

تذهب سدى.

وقد اشترك في إرشادها مع البطريرك تيموثاوس، عالم آخر من علماء الكنيسة الشرقية هو "سفيروس". وقد اعترفت هي فيما بعد بأن هذا الرجل الصالح قد هذب نفسها، وأبعدها عن الهاوية، وعلمها الكثير مما كانت تجهله. ولما أصبحت في بيزنطة صاحبة قوة واقتدار، دعت سفيروس وأصحابه إلى الإقامة بالقسطنطينية، وفتحت لهم أبواب قصرها، وحملت زوجها الإمبراطور على تأييدهم، وحمايتهم، ومساعدتهم بماله، ونفوذه، وسلطانه. وظلت من ناحية أخرى تعطف على الإسكندرية عطفًا خاصًا، وتقول عنها: "إنها أحب المدن إلى قلبي".

ولكن تيودورا لم تذهب إلى مصر للإقامة بها؛ ولذلك سرعان ما قررت مغادرتها لتستأنف رحلتها إلى حيث تجد الاستقرار الذى تنشده لنفسها.

وكان أن رحلت إلى سورية حيث نزلت بمدينة انطاكية "أكبر المدن السورية في ذلك العهد"، وكانت انطاكية مثل الإسكندرية، مسرحاً لمشاحنات دينية منوعة، ولكنها أقل عنفًا من مشاحنات العاصمة المصرية. كما أنها كانت أقرب إلى بيزنطة منها إلى الإسكندرية، من حيث الحياة الاجتماعية، وميول الشعب، وأنواع لهوه وتسليته. ففى انطاكية كان هناك ملعب مثل ملعب القسطنطينية، وكانت هناك دور للتمثيل، والتهريج، ومواخير للفسق والفجور بجانب أماكن العبادة، كما كان فيها ممثلات، وراقصات، ومنجمون، ودجالون.

وفي أنطاكية، عادت تيودورا شيئًا فشيئًا إلى سيرتها الأولى، وجعلت تتردد على قارئات الكف وضاربات الرمل، وابتعدت عن الرهبان، والوعاظ، والمبشرين.

وهناك توثقت عرى الصداقة بينها وبين "ماسيدونيا" الغانية التى اشتهرت بأنها تجيد استطلاع الغيب بقدر ما تجيد الرقص والغناء. وقد تنبأت ماسيدونيا لصديقتها الجديدة بأن مستقبلاً باهرًا ينتظرها، وبأنها سترتقى مدارج المجد والشهرة، وترتفع إلى أعلى ما يمكن أن ترتفع إليه امرأة.

وصدقت تيودورا نبوءة صديقتها الجديدة، وصارت تأوى كل ليلة إلى فراشها، وتغمض أجفانها وهي تتخيل نفسها زوجة لسيد الأبالسة، الحائز على كنوز الأرض.. الكنوز التى سوف تصبح لها دون سواها من الناس.

كانت الأحلام الحلوة تداعبها في منامها، فتصحو قبل الفجر وتصلى.. ثم تطلب من الله أن يحقق آمالها، واعدة بأن تعدل عن حياة اللهو التى تحياها، وتصبح امرأة تقية صالحة.

وكانت ماسيدونيا تعرف الأمير جستنيان ابن أخ الإمبراطور جستين وولى عهده، وقد خدمته من قبل في القسطنطينية في ظروف عصيبة، فحفظ لها الأمير الشاب جميل صنعها. ويغلب على الظن أن ماسيدونيا هي التي مهدت لصديقتها تيودورا سبيل الاتصال بولي العهد، ودخول القصر، وأنها استعانت لذلك ببعض أصدقائها في حاشية الإمبراطور وابن أخيه.

وقد ثبت الآن أن تيودورا رحلت عن انطاكية عائدة إلى القسطنطينية، وكلها آمال، وأحلام، وأنها ابتعدت عن الوسط الذي عاشت فيه من قبل، فهجرت المسرح، والملعب، والمرقص، ولم تعد تختلط بالنساء اللواتي عرفتهن في عاصمة الإمبراطورية قبل رحيلها مع عشيقها السوري إلى ليبيا. بل استأجرت بيتًا صغيرًا في حي هادئ منعزل، وجعلت تعمل بيديها في الغزل والحياكة، وتعيش قانعة بما يدره عليها هذا العمل الشريف.

وفي الروايات المأثورة عن القرن الحادي عشر، أن كنيسة "بانثيلمون" التى يرجع تاريخ تشييدها إلى عهد جستنيان، وتيودورا، كانت قائمة في مكان ذلك البيت الذى اعتكفت فيه الغانية التائبة بعد عودتها من سورية، وعاشت مدة من الزمن عيشة أقرب إلى الزهد والتنسك. والمأثور أيضًا أن تيودورا شيدت تلك الكنيسة لتعبر عن شكرها لله بعد توبتها، واتصالها بولى العهد، ثم الاقتران به، وارتقاء العرش معه جنبًا إلى جنب.

الممثلة المتوجة

حينما التقى جستنيان وتيودورا نحو سنة ٥٢٢م، وهو ما زال وليًا للعهد، كانت سنه تتراوح بين الثامنة والثلاثين، والأربعين. وكان جميلاً جذابًا، ذا بشرة زاهية، وشعر مجعد، ووجه صبوح، وقامة معتدلة، تضمها ثياب فاخرة، تسبغ عليها أناقة تسترعى الأنظار.

وكان جستنيان خفيف الروح، حلو الحديث، لطيفًا مع الناس، على جانب عظيم من الثقافة، فضلاً عن الثروة الضخمة التى يملكها، ومنصب

الإمبراطور الذي ينتظره.

ولما نجحت المؤامرة التى دبرها رجال القصر، وجلس عمه جستين على العرش بقى هو وليًا للعهد، مقدمًا على جميع رجال الدولة. فقد أغدق عليه عمه الألقاب والنعم، وجعله قائدًا لحامية العاصمة، وأخذ يعده ليكون خليفته على العرش ولم يكن بالعجيب أذن أن تتطلع إليه أنظار تيودورا الحسناء، وأن تعمل جاهدة لاكتساب قلبه.

وكان جستنيان بعيد المطامع، بعيد الأهداف، واسع الحيلة، حريصًا على أن يسير كل يوم خطوة إلى الإمام في سبيل غرضه الأسمى؛ وهو الجلوس على العرش. وقد حصر جهده منذ اللحظة الأولى في إبعاد منافسيه من طريقه، والتخلص شيئًا فشيئًا من جميع الأشخاص الذين قد يعترضون ارتقاءه العرش، أو يقيمون في سبيله العراقيل. وقد نجح في هذا نجاحًا عظيمًا بفضل استمالته جميع الأوساط، والبيئات في المجتمع البيزنطي إلى أبعد حد؛ ولأن حبه للناس جعلهم بدورهم يحبونه بصدق وإخلاص.

وكان طبيعيًا أن يعطف رجال الدين في العاصمة على جستنيان، وأن يحرصوا على تأييده في جميع خطواته؛ ذلك لأنه كان متدينًا عن إيمان وعقيدة، متمسكًا بمبادئ الكنيسة الشرقية برغم المساعي التي بذلها عمه الإمبراطور للتقرب من روما، والكنيسة الغربية.

وعشقته الجماهير لأنه كان كثير التجوال في المدينة، يختلط بالناس، ويلاعبهم، ويغدق عليهم العطايا والهبات، ويقيم لهم المآدب الشعبية الشهية من حين إلى حين.

ولم يجد أعضاء مجلس الشيوخ، والنبلاء فيه ما يحملهم على الشك في نواياه، أو التأفف منه، فأخلصوا له كما أخلص لهم.

أما عمه الإمبراطور فكانت ثقته به لا تقف عند حد؛ لعلمه بأنه حكيم حازم، كثير التجارب، واسع المعرفة بشئون الدولة كبيرها وصغيرها، وبأنه يعمل بجلد لا يعرف الكلل، ولا يفوته شئ من دخائل الأمور مهما تكن تفاهتها.

وعلى هذا، فإن الشعب كان ينظر إلى جستنيان نظره إلى الحاكم الأصيل، والإمبراطور الحقيقي، ويكن في الوقت نفسه لعمه الإمبراطور الشيخ عواطف الولاء والاحترام.

وهكذا كان كل شئ يدل على أن جستنيان جدير بثقة الإمبراطور، وبمحبة الشعب على السواء. كما كان كل شئ يدل على أن هذا الأمير الناضج، القوى، المحبوب، قد أحب من كل قلبه تيودورا الحسناء، وبات لا يعدل حبها عنده أى شئ في الوجود.

وقد حار الناس في تعليل تلك العلاقة الغرامية التى توطدت بين ولي العهد الراجح العقل، ذي الأهداف السامية، وبين تلك الممثلة، ولم يستطع كثيرون منهم أن يكتموا دهشتهم من قيام تلك العلاقة الغريبة، وجعلوا يبحثون عن الأسباب والعوامل التى حملت جستنيان على الارتباط بتيودورا برابطة الحب، فلم يعثروا على ما يشفي غليلهم. ولهذا راحوا يقولون: "أن الغانية الحسناء عمدت إلى السحر والشعوذة للتسلط على قلب عشيقها".

ولم يكن هناك ما يدعوه إلى ذلك، فإن الأمير الشاب كان يحمل بين ضلوعه قلبًا سريع التأثر، يلتهب من الشرارة الأولى، وكان يميل إلى مغازلة النساء، ويصغي باهتمام إلى ما يروى حوله من مغامرات غرامية، وفضلاً عن ذلك كله كان ضعيف الإرادة أمام المرأة، بل أمام كل شخصية قوية، برغم مظاهر الشدة، والعناد التى كانت تبدو عليه!

وفي نفس الوقت كانت تيودورا بارعة الجمال، حادة الذكاء، لطيفة المعشر، عذبة الصوت والحديث، تعرف كيف تأسر قلوب الرجال الذين يتقربون إليها، وكيف تبقيهم في أسر جمالها وظرفها. كما أنها تعودت أن تدرس أهدافها بدقة، وترسم الخطة المثلى لبلوغها، ثم تمضي في سبيل ذلك في صبر ومثابرة، لا يثنيها عن عزمها أي شيء. وهكذا ما كادت ترى جستنيان للمرة الأولى، وكانت قد علمت عنه كل هذه الصفات، حتى قررت اقتناصه، ورسمت لذلك خطة نفذتها بحذافيرها فكللت بالنجاح.

أما هو فقد وقع في حبائلها منذ اللقاء الأول، فقد انقض عليه الحب انقضاض الصاعقة، وشعر بأن هناك قوة خفية تدفعه إلى أحضان تلك المرأة التى قال عنها فيما بعد: "أن جميع الصفات التي كنت أرغب في أن أجدها عند المرأة وجدتها مفرغة في تيودورا".

وظل جستنيان وفيا لتيودورا طول حياتها، وبقى حبه لها قويًا عنيفًا حتى موتها، كما كان منذ اليوم الأول الذي لقيها فيه.

وقد كتب أحد المؤرخين المعاصرين لهما أن جستنيان كان يعد تيودورا ألزم له من الهواء، وقال آخر أنها كانت "السعادة الكاملة المجسمة في امرأة

كاملة" وكثيرًا ما وصفها جستنيان نفسه بأنها اسم على مسمى.. وكلمة "تيودورا" معناها: "هدية الله"، أو "هبة الله". وطبيعى أنه وقد أحبها كل ذلك الحب العنيف لم يكن يرفض لها طلبًا، أو يبخل عليها بأي شئ تطلبه منه.

كانت تحب المال فأغدقه عليها بلا حساب.

وكانت تهوى المظاهر والألقاب، فأقنع عمه الإمبراطور بأن يمنحها لقب نبيلة، فارتفعت إلى أعلى درجات المجتمع البيزنطي.

وكانت عنيدة في آرائها متشبثة بها، فعمل جستنيان بجميع تلك الآراء بعد أن وافق عليها، وأصبح منفذًا لإرادتها، مؤيدًا لأهوائها، صديقًا لأصدقائها، خصمًا لخصومها!

ولما كانت تحقد على جماعة "الخضر" منذ العهد الذى كانت فيه ممثلة في ملعب العاصمة، فقد سايرها جستنيان وناصب الخضر العداء، وأعلن نفسه مدافعًا عن الزرق وحامياً لهم، إلى حد آثار عليه في النهاية ثائرة النقمة والانتقاد.

وكذلك كانت تميل إلى فريق دون آخر من أصحاب المذاهب الدينية، منذ أقامتها بالإسكندرية، فاعتنق جستنيان أفكارها وآراءها في هذا المضمار أيضاً، وسار بعد وفاة عمه على سياسة تتعارض مع السياسة التى كان الإمبراطور الشيخ راغبًا في تطبيقها بين الكنيستين المتخاصمتين.

ولقد فطن الشعب سريعًا إلى العلاقة بين جستنيان وتيودورا، فما

مرت أسابيع على قيامها بينهما حتى أصبحت حديث الخاصة والعامة في بيزنطة، بل لقد تخطى خبرها أسوار العاصمة، فلم يكن اهتمام الناس بها في حمص، وبيروت، وانطاكية، والإسكندرية بأقل منه في بيزنطة، ولم يكتم أهل تلك البلاد عجبهم من أن الممثلة الشريرة، والخاطئة التائبة، تلميذة تيموثاوس وسفيروس، أصبحت من نبيلات بيزنطة، وعشيقة لولي العهد.

ورأى البسطاء من الناس أن هذا الحادث العجيب ليس إلا مظهرًا من مظاهر العطف الرباني، وأن الله أراد أن يضع بجانب الأمير ولي العهد، امرأة من بيئة وضيعة، لكي تصبح حامية الشعب، وحاملة رغباته وأمانيه إلى أصحاب السلطان.

وبدءوا يتوجهون إلى تيودورا بطلباتهم وتوسلاتهم، وكان أول ما طلبوه منها، أن تتدخل لدى جستنيان لكي يقنع الإمبراطور بتخفيف وطأة الاضطهاد عن رجال الدين الذين يخالفونه في الرأى والميول.

وقد أجابتهم تيودورا إلى رغبتهم وحققت أملهم، وكان بين المغضوب عليهم جماعة من الرؤساء الروحيين وأنصارهم، يقيمون في منفاهم ببلاد العرب، فأقنعت تيودورا عشيقها بأن يجعل الإمبراطور يصفح عنهم، وسرعان ما راح يسعى في هذا السبيل لإرضاء رغبتها، فكلل مسعاه بالنجاح، وعفا الإمبراطور عن أولئك المنفيين، وسمح لهم بأن يذهبوا إلى الاسكندرية ليعيشوا فيها بين زملائهم الذين يجمعهم وإياهم وحدة العقيدة، ووحدة الرأى. وكان ذلك نصرًا عظيمًا للمرأة الساحرة، ودليلاً على نفوذها، وقدرتها، وحسن تدبيرها.

وحدث فيما بعد ما هو أعجب من ذلك وأبعد أثرًا، فقد تمكن الحب من قبل جستنيان إلى حد أنه أعلن ذات يوم أنه راغب في اتخاذ عشيقته زوجة حليلة. ويظهر أن الإمبراطور جستين الطيب القلب لم يمانع كثيرًا في إقدام ابن أخيه وولى عهده على ذلك الزواج المخالف للعرف، والتقاليد، والكرامة. وكان هذا هو المنتظر؛ لأن هذا الإمبراطور نفسه نشأ جنديًا، ولم يكن ينحدر من سلالة ملوك، أو أمراء، أو نبلاء، ولذلك لم ير ضيرًا في أن يتزوج ابن أخيه من راقصة الملعب التي أتخذها خليلة له. ومما يذكر أن الإمبراطور العظيم كان هو الآخر قد تزوج جارية مجهولة الأصل، بعد أن أتخذها عشيقة له في خلال توليه قيادة الجيش الروماني لفتح بعض البلدان. وقد رافقته في غزواته وحروبه، ثم تزوجها، وأجلسها على العرش يوم بايعه الروم بالملك على إثر انتصاراته الباهرة.

فلماذا إذن يمانع الإمبراطور جستين في زواج جستنيان من تيودورا؟.. على أن العراقيل جاءت من حيث لم يكن أحد يحتسب، فقامت المعارضة في زواجه بتيودورا، لا من الإمبراطور عمه، ولا من أحد من رجال الحكومة، أو الجيش، أو رجال الدين، بل جاءت هذه المعارضة من جانب الإمبراطورة "أوفاميا" زوجة الإمبراطور الشيخ، وعشيقته السابقة المجهولة الأصل.

نعم، إن الجارية التى توجها جستنين إمبراطورة في بيزنطة، عارضت بكل قوتها في أن يتزوج ولي عهد زوجها من امرأة من بنات الشعب؛ لأنها فيما يبدو لم تكن تريد أن تصل امرأة غيرها إلى عرش بيزنطة، بالطريقة التى وصلت بها هي إليه.

وأيما كانت الأسباب التي حدت بالإمبراطورة إلى هذه المعارضة، فقد كانت مفاجأة صعق لها جستنيان، وثارت ثائرة تيودورا، بينما ضحك الشعب البيزنطي لذلك كثيرًا.

وقد حاول الإمبراطور جستين أن يقنع زوجته بالعدول عن موقفها، لكنها لم تقتنع. ومما يزيد في غرابة ذلك الموقف أن أوفاميا لم تكن تكره جستنيان، أو تحتقر الشعب الذى خرجت منه، ولكنها كانت تقول أن تكرار الخروج على العرف، والتقاليد، والقانون فيه ضرر كبير من شأنه أن يؤثر في مركز الأسرة المالكة وسمعتها. وإذا كان زوجها جستين قد رفعها إلى العرش، فإن هذا لا يعني أن سلم العرش أصبح في متناول جميع الأقدام، ترتقيه بنات الشعب الوضيعات كما ترتقيه بنات الأسر النبيلة سواء بسواء.

غير أن الأقدار حلت المشكلة.. فقد ماتت أوفاميا في سنة ٥٢٣م، وجاء موتها في الوقت المناسب، وهدأت ثورة جستنيان، وعشيقته. ولم يبق عليهما إلا التمهيد القانوني للزواج المنشود.

وكان القانون البيزنطي يحرم على أعضاء مجلس الشيوخ، وذوي المناصب الرفيعة في الدولة، الزواج من الإماء، والخادمات، والممثلات، وغيرهن من النساء اللواتي يحترفن حرفة معيبة، أو وضيعة. ولكن لم يكن من الصعب على جستنيان أن يقنع عمه بإلغاء هذا القانون، أو بتعديله. وهكذا وافق الإمبراطور بإدخال التعديل المطلوب على ذلك القانون، ونص فيه على أن المرأة التى تنطبق عليها أحكام هذا القانون، إذا حسنت

سلوكها، وتطهرت من خطاياها، وخرجت من البيئة التي تعيش فيها، يحق لها أن تتزوج أي رجل من رجال الدولة، بشرط أن تحصل على إذن من الإمبراطور.

وذهب التعديل إلى أبعد من هذا، فنص على أن كل ممثلة ممن ينطبق عليهن القانون المعدل، إذا أنعم عليها برتبة، أو تولت منصبًا من المناصب، فإن ذلك يكون كافيًا لإعفائها من الحصول على الإذن الإمبراطوري. وقد وضع هذا التعديل الإضافي خاصة لإعفاء تيودورا من طلب التصريح لها بالاقتران بالأمير ولى العهد. ولكي يصبح كل شئ على خير ما يرام، أضيف إلى التعديل أيضًا أن بنات الممثلة التى تتزوج بمقتضى هذا التعديل لا يطبق عليهن القانون المذكور، ولا يفرض عليهن طلب الإذن من الإمبراطور لعقد زواجهن، سواء أكان مولدهن قبل توبة الأم أم بعدها، وهكذا أصبحت ابنة تيودورا أيضًا في حل من كل قيد، إذا أرادت أن تتزوج.

وقبل أن يتزوج جستنيان عشيقته تيودورا، نفحها بآنية باهظة جعلتها في مصاف الأغنياء. ولم يقابل البيزنطيون هذا الزواج بشيء من الامتعاض، ولم يتأفف منه غير بعض المحافظين المتمسكين بالتقاليد، ممن رأوا في هذا الحادث دليلاً على أن جستنيان قليل الاهتمام بمكارم الأخلاق، في حين كان بوسعه أن يختار زوجته من بنات الأسر النبيلة الغنية، أو من بنات الملوك في الشرق، أو الغرب.

ولم تصدر كلمة اعتراض واحدة عن مجلس الشيوخ أو الجيش أو

رجال الكنيسة. أما الشعب، فقد تذكر أنه طالما صفق لتيودورا الممثلة في ملعب العاصمة، فراح من جديد يصفق لها وهي على مدارج العرش.

وما كادت تعقد زواجها، حتى بدأت تتدخل في شئون الدولة، بوصفها شريكة ولى العهد في نشاطه ومسئولياته، وقد رضى هو بذلك كما رضى به الامبراطور الشيخ الذى غمرها بعطفه وحنانه، منذ عرفها ووافق على زواجها.

والواقع أن تيودورا كانت بجانب عيوبها الكثيرة تمتاز بفضيلة نادرة، هي الوفاء للأصدقاء الذين عرفتهم وأحبتهم. وكان رجال الدين المضطهدون أول من تجلت لمصلحتهم وفائدتهم هذه الفضيلة التى لازمتها طول حياتها. فقد أدركت تيودورا، بثاقب نظرها، مبلغ الضرر الذى يعود على الإمبراطورية من جراء تفاقم الخلافات المذهبية، والاضطهاد القائم على التعصب. وبدأت من فورها تبذل جهدها لوضع حد حاسم لذلك الاضطهاد فرسمت لذلك خطة جريئة راحت تمهد لها وتنفذها بسرعة مقرونة بالدقة والمهارة، بحيث لا تغضب أحداً ولا تثير شكوك أحد.

ومن أجل ذلك دعت جميع المغضوب عليهم من الإمبراطور ومن رجال الدين الموالين له، إلى بيزنطة حيث أنزلتهم ضيوفاً عليها. وقد لبوا هذه الدعوة الكريمة جميعاً شاكرين مغتبطين، فوضعت تحت تصرفهم داراً فسيحة فخمة أقاموا بها. وأجرت عليهم الأرزاق وأغدقت عليهم الهبات، ثم وقفت نشاطها وجهودها وبراعتها على التوفيق بين المتخاصمين وتقريب وجهات لنظر فيما بينهم وإزالة أسباب الجفاء واقتلاع جذور الأحقاد من

الصدور. وبرغم ما كان في ذلك العمل من خطر عليها، ومن تحد لخصوم أولئك المغضوب عليهم، فقد كلل التوفيق مساعديها، وعرفت كيف تفرض أرادتها وتصل إلى أغراضها!

أن تيودورا كانت تتمتع بسلطة لم تكن هي نفسها قد أدركت بعد مداها، وبنفوذ لم تكن بعد قد لمست قوته!. فزواجها من جستنيان، الأمير المحبوب، ضاعف حب الناس لها، لأنها من بنات الشعب. فصعد نجمها جنباً إلى جنب مع نجم الزوج الذى اختارها شريكة لحياته. وبعد أن كانالإمبراطور قد منحها لقباً نبيلاً قبل الزواج، عاد فمنحها لقباً أرفع منه بعده. وفي شهر إبريل سنة ٥٢٧، أصدر جستين مرسوماً إمبراطورياً يقضى بأن تكون تيودورا، مثل جستنيان، شريكته فيالعرش". وبعد أيام من ذلك الإعلان الرسمي الصريح عقد أعضاء مجلس الشيوخ جلسة في بهو القصر الإمبراطوري، حضرها مندوبون عن الجيش والحرس، وصعد الإمبراطور جستين إلى منصة العرش، وأعلن مرة أخرى أن ابن أخيه جستنيان أصبح إمبراطورًا، وأن زوجته تيودورا أصبحت إمبراطورة تشاركه السلطة، والحقوق، والواجبات.ووقف بطريرك القسطنطينية "إبيفانوس" عن يمين الإمبراطور الشيخ وتلا الصلوات المعتادة في مثل هذا الظرف، ورد عليها الحاضرون بكلمة واحدة ودعاء واحد: "آمين"، ثم نزع جستين التاج عن رأسه، ووضعه بيده على رأس ابن أخيه وشريكه في الملك جستنيان، وهتف الحاضرون ثلاثًا للإمبراطور الجديد، ورفع جستنيان يده شاكرًا، ووعد الجنود بمكافأة مالية عملاً بالتقاليد المرعية.

وبعد ثلاثة أيام، أقيمت حفلة رسمية في كنيسة القديسة صوفيا بمناسبة

عيد الصفح، فبدت الأزهار، والأكاليل، والأنوار المتلألئة تسبغ على المكان رونقًا جديرًا بتلك المناسبة الجليلة، وذلك العيد المزدوج، وقام البطريرك بإجراء المراسيم الدينية لتكريس الإمبراطور الجديد، ودهنه بالزيت المقدس.

ووقف جستنيان بردائه الإرجواني، وقميصه المموه بالذهب، والمرصع بالأحجار الكريمة، وفي قدميه حذاء بلون الرداء، وحول وسطه حزام مرصع بصفوف من الجواهر، وعلى رأسه تاج الملك، وفي عنقه ومعصميه حلي الإمبراطورية المتوارثة، وتسلم السلطة العليا في الدولة الرومية الشرقية.

ووقفت تيودورا بجانبه، تشاركه العظمة، والمجد، والتكريم، وقد وضعت على كتفيها رداء بنفسجيا، ينتهي بذيل طويل من خيوط الذهب، وعلى رأسها التاج، وفي شعرها المسترسل عقود من الماس وغيره من اللآلئ الثمينة تتساقط على كتفيها كمطر من نور.

وبعد أن توجت الممثلة السابقة إمبراطورة على الشرق مع زوجها العاشق المتيم في الكنيسة التاريخية، خرجت معه إلى الممرات المزدانة بالأزهار، والرياحين، والأعلام، ورافقته إلى الملعب حيث تلقت هتاف الجماهير وتصفيقهم في المكان الذي كانت من قبل ترقص فيه، وتمثل، وتغني. وهكذا تحقق لها حلمها الجميل.

وفي السنة ذاتها، في أول أغسطس سنة ٥٢٧م، مات جستين تاركًا الملك لابن أخيه الذي لم يجد أية صعوبة في الاحتفاظ بالعرش، وظلت

تيودورا بجانبه تشاركه المجد والمتاعب.

وحكمت الممثلة السابقة إحدى وعشرين سنة، من سنة ٥٢٧م إلى سنة ٥٤٨م، كانت فيها مطلقة التصرف، حاكمة بأمرها على عرش أعظم دولة عرفها العالم في ذلك العهد.

امرأة وأسطورة

أن قصة تيودورا قبل ارتقائها العرش أكثرها مأخوذ عن المؤرخ "بروكوبس"، فهو وحده من بينالمؤرخين الذي عني بتدوين تلك الحقبة من حياة الإمبراطورة العظيمة، في كتابه الذي سماه "التاريخ السري"، وقد بقي هذا الكتاب مطويا كما خطه مؤلفه حتى كشف عنه في أوائل القرن الثامن عشر، فكان المصدر الوحيد الشامل الذي يمكن الرجوع إليه في هذا الشأن.

ولكن هل يجب أن نصدق كل ما جاء في هذا الكتاب عن تيودورا، وعن سلوكها الشائن، وسمعتها الملطخة، وما ألصقه بها بروكوبس من أعمال يندىلها الجبين؟

يحق لنا أن نتساءل: إذا كانت تيودورا تلك المرأة التي وصفها بروكوبس، فكيف لم يجرؤ أحد غيره على التحدث عنها بمثل ما تحدث به من قسوة وحرية؟

إن الأناس كانوا ينتقدون الملوك، والملكات، والعظماء في ذلك العهد، ويوجهون إليهم أفظع التهم جهارًا، فكيف لم يعمد واحد منهم إلى

تدوين مثل ما دونه بروكوبس عن تيودورا، في حين أن خصوم جستنيان حملوا عليه حملة شعواء، وقذفوه بعبارات جارحة وصل صداها إلينا من خلال صفحات التاريخ من غير أن يذكروا في حملاتهم كلمة عن المرأة التي يصفها بروكوبس بأنها من أنذل النساء الساقطات؟

وكيف يمكن أن يضرب جستنيان عرض الحائط بجميع الاعتبارات، ويتزوج امرأة ملطخة بالعار إلى هذا الحد، وهو الأمير الموعود بالعرش، الحكيم المثقف، البالغ نهاية العقد الرابع من العمر؟

يبدو لنا أن الحقيقة لا تطابق تماما ما ذكره بروكوبس، وأنه قد بالغ في تلطيخ سمعة تيودورا لغرض في نفسه. ولا شك أن تيودورا ارتكبت كثيرا من الهفوات والأخطاء التي تؤخذ عليها، ولكن مثل تلك الهفوات والأخطاء كان الناس في ذلك العهد ينظرون إليها بعين غير التي ننظر بها نحن اليوم إلى مثلها، وفي هذا ما يفسر لنا سكوت معاصري تيودورا عن سلوكها الشخصي وسيرتها قبل أن تصبح إمبراطورة على رأسها التاج.

ولقد ذكر لنا التاريخ أسماء طائفة كثيرة العدد من الأمراء، والنبلاء، والأغنياء، ورجال الحكم، ورجال الدين، والقواد في مختلف عهود الإمبراطورية البيزنطية، ومن بين هؤلاء كثيرون، عمدوا إلى انتشال النساء الساقطات من بؤرهن، واتخذوا منهن زوجات حليلات. وكان الرأى العام ينظر إلى ما أقدم عليه أولئك الأشخاص المحترمون على أنه عمل إنساني أراد به صانعوه اكتساب الأجر والثواب. فلكل عصر من العصور، ولكل شعب من الشعوب آراؤه، ونظرياته، وعقليته. وتلك كانت عقلية

البيزنطيين المستمدة من عقلية الرومانيين، وتلك كانت نظرياتهم وآراءهم.

من أجل ذلك نميل إلى الاعتقاد بأن تيودورا لم تكن كما وصفها بروكوبس، ولكنها على كل حال كانت تلك الراقصة، والمغنية، والممثلة التي سقطت ومشت في الطريق الذي تسلكه مثيلاتها، ثم حاولت الخروج من البؤرة التي تردت فيها، ونجحت في محاولتها، فندمت على ما فرط منها. ولما وجدت الرجل الذي تطمئن إليه أخلصت له، واستقرت في حياتها الزوجية، ووجدت عزاء فيما أصابته من مجد وسؤدد، وفيما انصرفت إليه من تدين وتعبد.

أن تيودورا امرأة مغامرة، هذا مالا شك فيه. وهي ملطخة بالعار، هذا ما لا سبيل إلى إنكاره، ولكنها امرأة ذكية، نبيهة، بارعة في كل شيء، عرفت كيف تتخلص من عارها، وتمحو سيرتها القديمة الشائنة بسلوكها طريق الخير، وخدمة المصلحة العامة، والإحسان إلى شعب خرجت منه، وحكمته، وأحبته.

أن ما حدث لتيودورا التي ارتفعت من الحضيض إلى الأوج الأعلى، كان له أثر بعيد في مخيلة مواطنيها ومعاصريها. فقد دهشوا له، وكانت دهشتهم في محلها، وليس عجيبًا إذن أن يتناول الناس تلك الحياة العجيبة بعد موت تيودورا، وأن يزيدوا في وقائعها، وعلى حواشيها وهوامشها ما شاء لهم الخيال، حتى غدت أقرب إلى الأساطير منها إلى حقائق التاريخ.

لقد كان الغربيون والشرقيون على السواء يتحدثون عنها، وعن صعود نجمها المفاجئ، وأعمالها العظيمة بكثير من الإعجاب والتقدير,

وراحوا يضيفون إلى ما سمعوه، وعرفوه، وقرءوه تفصيلات من عندهم. فنسج البيزنطيون، والسوريون، والمصريون، والصقالبة، والعرب، وغيرهم ممن كان لتيودورا، أو لزوجها صلة بهم خيوطا من الخيال حول حياتها، وتحولت هذه الخيوط مع الوقت إلى نسيج جلل تلك الصورة العجيبة، وأحاطها بهالة جعلتها تبدو كقصة مثيرة رائعة، وإن كانت في الوقت نفسه لا يمكن أن تكون حقيقة مجردة من الخيالات والأوهام.

وهكذا وصلت إلينا تلك الأوصاف التي علقت بتيودورا، بعضها ممزوج بالعطف والتغاضى عن السيئات، وبعضها مصحوب بنقد لاذع جارح، وبعضها فيه لين وفيه قسوة معًا في آن واحد.

والغريب في تاريخ هذه المرأة أن الذين صاغوا له عقود المديح قد بالغوا في مديحهم، وأن الذين كالوا لها الذم قد بالغوا في ذمهم. فلابد لمعرفة الحقيقة من استيعاب أقوال هؤلاء وأولئك، ثم تحكيم العقل والمنطق، وأخذ ما يمكن تصديقه من أقوال الفريقين، وصياغته في قالب جديد بعيد عن قالب الأساطير.

ولقد ثبت أن البيزنطيين الذين أغدقت عليهم تيودورا عطفها وإحسانها قد أرادوا أن يجعلوا منها قديسة طاهرة. ومنذ القرن التاسع ظهرت في بيزنطة سيرة جديدة للإمبراطورة تيودورا، طهرتها من كل رجس، ونفت عنها كل عيب، وبلغ من حماسة أحد هؤلاء المؤرخين أن قال عنها: "أن جميع الفضائل التي منحها الله للناس قد أفرغت في تيودورا..." وأكد غير واحد من المؤرخين الصقالبة أنها كانت أجمل نساء عصرها، وأشدهن

ذكاء، وأقواهن شكيمة.

وخرج المؤرخون السوريون عن حدود الاعتدال، فقالوا: أن تيودورا لم تكن ممثلة، ولا راقصة، ولا لاعبة في ملعب بيزنطة، بل كانت ابنة رجل من أعضاء مجلس الشيوخ. وأضافوا إلى هذا قولهم: "أن أباها المحترم تردد كثيرًا قبل أن يرضى بأن تصبح زوجة لولى العهد، واشترط في النهاية ان يقسم جستنيان بأن يكون حاميا للكنيسة الشرقية في جميع الظروف والأحوال.

ولا شك في أن السوريين أرادوا أن يجعلوا من تيودورا امرأة من أصل رفيع ليس بالوضيع؛ لأنهم أحبوها أكثر من غيرهم من رعايا الإمبراطورية، بسبب مواقفها الجريئة في الدفاع عن رؤسائهم الروحيين، ورجال كنيستهم.

على أن أغرب أسطورة عن تيودورا هي بلا شك تلك التي دونها المؤرخ الفرنسي "إيموان دى فلوري" في القرن الحادي عشر، وقد وُجدت مخطوطة في أحد الأديرة.

ومما جاء في أقوال هذا المؤرخ الخصب المخيلة أن: "جستنيان وصديقه بليزير كانا من قواد الجيش البيزنطي، وحدث مرة أن التقى الصديقان بأختين جميلتين هما: أنطونيا وأنطونينا، وهما من سلالة النساء الفارسات اللائي ينتمين إلى إحدى الممالك الواقعة على ساحل البحر الأسود، وكان اللقاء في بيت من البيوت المشبوهة في القسطنطينية، بعد أن وقعت الفتاتان أسيرتين في أيدي البيزنطيين، وانتهى بهما المصير إلى ذلك البيت الموبوء، حيث سقطتا في هوة العار، وسرعان ما أحب بليزير واحدة منهما، وأحب جستنيان الأخرى. وذكرت هذه لجستنيان أن عرافة في

بلادها تنبأت لها وهي صغيرة بأنها ستعرف شابا وترتبط معه برابطة الحب، وأن ذلك الشاب سيصبح ملكا. وطلبت منه أن يقسم لها لئن تحققت هذه النبوءة ليتزوجن منها، ويتوجها ملكة معه، فأقسم جستنيان وترك بين يدى الفتاة خاتما ثمينا كعربون لوفائه".

ثم تمضى الأسطورة قائلة: "أن الصلة ما لبثت قليلا حتى انقطعت بين الشابين والفتاتين، ثم دارت الأيام دورتها، وإذا بجستنيان يتبوأ عرش بيزنطة خلفًا لعمه جستين، وإذا بامرأة تصل إلى القصر، وتطلب مقابلة الإمبراطور، فلما أذن لها بمقابلته لم يعرف أنها هي حبيبته أنطونيا إلا بعد أن وضعت أمام عينيه ذلك الخاتم الذي تركه لها يوم أن تقابلا في البيت المشبوه، ثم طلبت إليه أن يبر بقسمه ويفى بوعده لها. ولما كان حبها قد عاد إلى قلبه فإنه لم يسعه إلا أن يجيب طلبها على الفور، فاتخذها زوجة له، ونادى بها إمبراطورة بجانبه لتشاركه التاج، والمجد، والحياة كلها. وقد ارتفعت أصوات بعض الشيوخ بالاحتجاج، ولكن جستنيان عرف كيف يبطش بالمعارضين، وهكذا شاركت انطونيا زوجها في ملكه وعرشه".

وانطونيا التي روي المؤرخ الفرنسي قصتها هي تيودورا نفسها بدمها ولحمها. ويتضح من هذه الرواية إلى أي مدى بلغت شهرة هذه الإمبراطورة التي كانت راقصة وممثلة، وكيف داعبت مغامراتها مخيلة الكتاب فخلطوا في أحاديثهم عنها بين التاريخ والقصص، وبين الحقائق والأساطير؟

وممن تحدثوا عن تيودورا الإمبراطورة، رجل من كبار الآباء الروحيين وأعلام الكنيسة: هو الأسقف يوحنا، وقد وصفها بأنها امرأة ساقطة، وهو

وصف يتفق مع ما ذكره عنها بروكوبس في كتابه "التاريخ السري" الذي أشرنا إليه.

ويمكننا اليوم أن نلخص في سطور، بل في كلمات، حياة تيودورا العجيبة، بفضل ما أسفرت عنه الأبحاث والدروس أنها فتاة من أصل وضيع، عملت في ملعب بيزنطة، ومارست طائفة من الحرف، وكان سلوكها مدعاة للنقد ومجلبة للعار. ولكن الناس لم يعرفوا عنها الشيء الكثير في ذلك الوقت، ولم يلتفتوا إليها أكثر من التفاتهم إلى أية امرأة أخرى من نوعها. ولكن، بعد أن أصبحت الراقصة إمبراطورة، وبعد أن انتقلت من الملعب إلى العرش، راح الناس يروون عنها ما يشاءون، بعضهم يمدحها، وبعضهم يقدحها، وآخرون يجمعون بين المدح والقدح. ولكن أعمال تيودورا الإمبراطورة قد غطت على كل ما عداها، وكانت جديرة بأن تغطي على كل ما كانت عليه تيودورا الراقصة.

والحقيقة قد تكون أحيانا أغرب من الأساطير!

الفصل الثاني

الإمبراطورة

القصر المقدس

في القرن السادس كان القصر الإمبراطوري في بيزنطة يشغل الربوة القائمة بين الملعب، والبحر إلى غرب كنيسة آيا صوفيا، ويمتد على سفوحها من القمة إلى ساحل بحر مرمرة.

ولم يكن ذلك القصر شبيها بالقصور الملكية في أيامنا هذه؛ أي لم يكن مكونا من دار فخمة أمامها ميدان فسيح. بل كان مثل قصور السلاطين العثمانيين، ومثل الكرملين مقر القياصرة في روسيا، يضم خلف أسواره طائفة من المباني المتنوعة المتعددة، بينها قاعات الاستقبال، والكنائيس، والحمامات، والملاعب، والمسارح، والثكنات، والأديرة، والدور الفخمة، والبيوت المتواضعة، والمساكن البسيطة، والشرفات الفسيحة المطلة من بعيد على البحر والساحل الأسيوى.

أي أن القصر كان مجموعة ضخمة من المباني المختلفة، تربط بعضها ببعض شبكة من الطرق المرصوفة بالبلاط، ومن الممرات، والدهاليز، والسلالم، وتكتنفها كلها حدائق الأزهار، وبساتين الفاكهة الممتدة إلى حيث تتكسر الأمواج على الشاطئ.

وبعبارة أخرى، كان ذلك المقر الإمبراطوري مدينة داخل مدينة

بيزنطة، تحوطها الأسوار، وتخفيها جدرانها العالية عن الأنظار، ويتجلى فيها البذخ والترف، وتقام بها المآدب والحفلات الصاخبة، وتتم في نطاقها الدسائس والمؤامرات، وتجري بين جوانبها حياة خاصة، حياة إمبراطور بيزنطة، حياته التي لا تجاريها ولا تشبهها حياة أي أحد سواه من أصحاب التيجان.

وكان ذلك المقر يعرف باسم "القصر المقدس"، ولم يكن في العالم في ذلك العهد قصر آخر يضاهيه في ضخامته، وفخامته، وروعته، وبدائع هندسته، وزخرفته، وتنسيقه، ومقدار ما يحويه من تحف وكنوز.

كان مدخله الرسمي من ميدان الإمبراطور، ومن باب هائل من البرونز المزخرف، وخلف الباب مباشرة قاعة الانتظار التي أنشأها جستنيان نفسه، وأفرغ فيها أروع ما وصل إليه فن الزخرفة، وعلى جدران تلك القاعة الفسيحة، رسمت بالفسيفساء جميع المعارك التي انتصر فيها الأباطرة على أعدائهم.

وتجيء بعد هذه القاعة البديعة ثكنات الحرس، ومنها ينتقل الزائر إلى نطاق القصور المتتابعة. وكانت قاعة العرش تحفة من تحف الدهر، وفيها كان الإمبراطور يستقبل السفراء، والمبعوثين، ووفود الملوك. وأبواب هذه القاعة من العاج الناصع البياض من ناحية، ومن الناحية الأخرى أبواب من البرونز، والأرض والجدران مغطاة بالفسيفساء، والرسوم، والحجارة الكريمة، وخيوط الذهب والفضة.

وفي الأجنحة المخصصة لسكنة الإمبراطور والإمبراطورة، تكدست

التحف بين قطع الأثاث الفاخر، وتوفرت جميع أسباب الراحة والمتعة. ومن هذه الأجنحة تبدأ الدهاليز الواسعة، والممرات المزدانة بالرسوم، والموصلة إلى الملعب من ناحية، وإلى كنيسة أيا صوفيا من ناحية أخرى.

فحياة الشعب البيزنطي إذن تدور حول هذين المحورين، الملعب، والكنيسة، الصلاة واللهو، الخشوع والضوضاء، الهدوء والصخب، وحياة الإمبراطور أيضًا موزعة بين الاثنين.

ويعجز القلم عن وصف ما كانت تحويه تلك القصور، وما ضمته بين جوانبها وأجنحتها المعدة لسكن الإمبراطور والإمبراطورة، فضلا عن محتويات الكنائس، والمتاحف، وبيت المال، والمسارح الخاصة، والحمامات، وغيرها.

أما سكان المقر الإمبراطوري فإنهم يؤلفون شعبًا قائمًا بذاته داخل الأوار، فهناك أصحاب المناصب الرفيعة، وكبار الموظفين، والقواد، والجنود، ورجال التشريفات، وحاشية الإمبراطور والإمبراطورة، والمشرفون على الإسطبلات وما فيها من خيول مطهمة، وعلى المركبات المرصعة بالجواهر، وهناك الأساقفة ومن إليهم من رجال الدين بين قساوسة، ورهبان، وشمامسة، وغيرهم، وهناك جيش من النساء في خدمة الإمبراطورة.

وكانت المراسيم تجري داخل تلك القصور على الطريقة التي كانت متبعة في روما، وورثها أباطرة الشرق عن أباطرة الغرب، وهي تفوق بأبهتها ما كان معروفًا عن الأكاسرة أرباب التيجان وسادة البذخ والعظمة. فالإمبراطور البيزنطي أشبه بالآلة.. في نظر رعيته؛ لأنه صاحب السلطان

الذي لا تعلو كلمة على كلمته غير كلمة الله، ولهذا، فإن رجال الدين وحدهم كانوا يجدون في أنفسهم الجرأة الكافية للوقوف أمام الإمبراطور وتحديه. فالشعب لا يرضى بأن يناقش الإمبراطور في غير الشئونالمتعلقة بالدين والعقيدة، وقد حدث غير مرة أن اقتحم أساقفة من مصر، أو سورية، أو فينيقيا أبواب القصر، ووجهوا إلى الإمبراطور عبارات جارحة فيها لوم، وفيها عتاب، وفيها قذف. وكانت قاعات القصور تتحول إلى حلبة صراع عنيف بين القابض على زمام القوة المادية، وبين القابض على زمام السلطة الروحية. وفي عهد جستنيان توالت احتجاجات رجال الدين، وبلغت جرأتهم حدًا أوشك معه الإمبراطور أن يفقد صبره ويقدم على أعمال طائشة، لولا أن تدخلت تيودورا، وبذلت براعتها ولباقتها لتجنب الكوارث.

وهناك في داخل ذلك المقر الإمبراطوري، كانت تيودورا ترسم الخطط، وتعد العدة لتنفيذها، وهناك كانت تستضيف المغضوب عليهم، وتحميهم سرًا، وتمهد السبيل لإعادة الصفاء بينهم وبين الإمبراطور. ومن داخل ذلك "القصر المقدس" حكمت المرأة العجيبة أوسع إمبراطورية في ذلك العهد، وهناك أيضًا تمتعت بملذات الحياة إلى أبعد ما يمكن أن يتمتع بها إنسان، في جو من العظمة والبذخ، ولكنها ظلت وفية لأصدقائها، وفية للشعب الذي أحبها وأحبته.

في قصر البوسفور

لم يذكر التاريخ أن ملكة ما أحبت البذخ والترف بقدر ما أحبتهما تيودورا، ولم يحدث أن حفظ التاريخ اسم امرأة مارست السلطة العليا بمثل المهارة التي مارستها بها تلك الممثلة المتوجة ابنة حارس الدببة.

كانت تيودورا منذ نشأتها تميل إلى التبرج، والبهرجة، والزينة. فلما استقرت في القصر المقدس، بذلت في هذا المضمار كل ما في وسعها من أساليب التغني، فبلغت أقصى ما يمكن أن تبلغه امرأة من الأناقة، والذوق السليم، والاختيار الحسن.

وكانت تحلم بأن يكون لها قصر فخم خاص، فيه قاعات فسيحة جميلة، وأزياء بديعة، وحلي ومجوهرات نادرة. فسعت حتى تحقق لها ذلك الحلم، وكان لها ما أرادت وزيادة.

ولما كانت شديدة العناية بنفسها، والمحافظة على جمالها فقد صار في سوعها"وهي إمبراطورة" أن تسرف ما شاء لها الإسراف في الإنفاق في هذه النواحي، فلم تضن على جمالها بشيء من مستلزمات المحافظة والعناية. وكان لها في ذلك أسلوب خاص ظلت مثابرة عليه طول حياتها. فكانت تنام كثيرا، ولا تنهض مبكرة في الصباح، ولا تحرم نفسها من الراحة بعد الظهر، كما كانت تكثر من الاستحمام وتعود إلى الراحة بعد كل حمام. ولم تكن تنظر إلى جمالها بوصفه وسيلة من وسائل الإغراء، أو سلاحا لإبقاء سيطرتها على زوجها وغيره من الرجال، بل كانت تعتقد أيضًا أن الملكة الجميلة تروق في أعين رعيتها، وأن الشعب يؤثر ألا تكون له ملكة، على

أن تكون ملكته قبيحة الصورة، أو تافهة الجمال؛ ولهذا السبب خاصة أرادت تيودورا أن تبقى جميلة ساحرة، لكي يفتتن بها الشعب الذي جعلتها الأقدار ملكة عليه.

ولم تكن عنايتها بمائدتها تقل عن عنايتها بشخصها؛ وقلما ذكر التاريخ مآدب بلغ فيها التفنن والسخاء ما بلغاه في مآدب تيودورا. وفي الوقت الذي كان فيه الإمبراطور جستنيان يتوخى البساطة، كل البساطة، في مأكله ومشربه، فلا تمتد يده إلى خمر، ولا يأكل حتى الشبع، ويكتفى بقليل من الخضروات، وكثيرًا ما كان يعمد إلى الصوم بضعة أيام بلياليها، إشباعالرغبته في التقشف والتعبد، كانت تيودورا تحرص كل الحرص على أن تصنع عكس هذا تماما. فتفرض أن يقدم على مائدتها أطيب ألوان الطعام، وأشهاها، وأغلاها، وألذ أنواع الشراب وأعتقها، كما كانت على النقيض من زوجها الذي يؤثر تناول طعامه وحيدًا، أو برفقتها وحدها، فتدعو إلى مائدتها نخبة كثيرة العدد من عظماء الدولة، أو الضيوف الأجانب الممتازين.

وفي الوقت نفسه كانت تيودورا مولعة بمظاهر الملك: تريد حاشية كبيرة، وحرسا لا عداد له، ووصيفات كثيرات، ومواكب لها أول وليس لها آخر. ولم يكن إسرافها في هذه الناحية يقف عند حد. بل لم يكن يكفيها أن تكون مراسم التشريفات معقدة، فكانت تعمد إلى زيادة تعقيدها في كثير من الأحيان.

كان الإمبراطور يقابل كل شخص يريد المثول بين يديه، ويغض

الطرف عن الهفوات التي تبدو من جانب الذين يقابلهم، ولا يؤاخذ أحدًا على مخالفته التقاليد والأنظمة المتبعة في مثل هذه الأحوال. أما تيودورا، فكانت على عكس ذلك، تفرض على الجميع شروط المجاملات والمصطلحات التيتنص عليها القوانين واللوائح. وقد ظلت– بعد أن اعتلت العرش– متمسكة بما ألفته على المسرح من الخضوع لمقتضيات الإخراج والتمثيل: ظلت تمثل على منصة العرش كما كانت تمثل على خشبة المسرح.

وكانت متكبرة شديدة الاعتداد بنفسها، خصوصًا بعد أن واتاها الحظ فاعتلت العرش. وقد دفعها ما ركب في طبيعتها من كبرياء واعتداد بنفسها إلى التمسك بإقامة فاصل بينها وبين الناس، ووضع حد لرفع الكلفة بينها وبين أقرب المقربين إليها، ولعلها كانت تجد لذة خاصة في رؤية العظماء يحنون الرءوس أمامها، بعد أن كانوا بالأمس ينظرون إليها نظرات لا تخلو من الاحتقار والأزدراء، يوم كانت تبدو أمامهم في ثياب الرقص وأزياء التمثيل.

وكانت التقاليد المرعية في قصر بيزنطة الإمبراطوري كثيرة الشعاب، متنوعة الوجوه. فقد اختفت شيئا فشيئا تلك البساطة التي أمتاز بها القياصرة الأولون، وحل محلها قانون يحدد لكل طبقة من طبقات الناس، حركاتهم وسكناتهم. واتسع نطاق النشاط داخل القصر في عهد تيودورا وجستنيان، واتخذت الحياة خلف أسوار المقر الإمبراطوري شكلا جديدا، فالإمبراطورة تريد –والإمبراطور يجاريها في ذلك إكراما لها– أن يحضر إلى القصر كل يوم جميع من يشغلون مناصب كبيرة في دوائر الدولة،

وجميع من تقع على عواتقهم مسئوليات الحكم والإدارة، وتيودورا ترى في ذلك وسيلة من وسائل الإشراف على سير الأمور، ومراقبة كل واحد من أصحاب المناصب المسئولين، من غير أن يبدو أن هناك تعمدًا في الإشراف والمراقبة.

ولما كانت جميع شئونالدولة تُقضى داخل القصر، فإن جميع الذين لهم علاقة–من بعيد، أو من قريب– بشأن واحد منها، كانوا يسرعون إلى المقر الإمبراطوري؛ كي لا يلفت تخلفهم الإنظار، أو يثير غيابهم الشكوك.

كان القياصرة الأولون يفتحون أبواب قصورهم، ويستقبلون رعيتهم بقليل من الكلفة، ولكن هذه العادة تلاشت مع الوقت بعد أن اعتلى جستنيان العرش، فكانت مقابلة الإمبراطور والإمبراطورة من الأمور الشاقة، تعترضها العراقيل والصعباب، وكان على صاحب المنصب الرفيع، إذا مثل أمام الإمبراطور، أن يكتفي بانحناء خفيف، ووضع يده على صدره للتحية، أما تيودورا فقد فرضت في أنظمتها الجديدة على من يمثل بين يديها أن يجثو على ركبته، ثم ينحني حتى يلمس الأرض بجبهته، ويضع يديه خلف ظهره، ويقبل طرف حذاء الإمبراطور، أو الإمبراطورة؛ لأن المراسم واحدة بالنسبة إليه وإليها.

وكان على من يخاطب الإمبراطور أن يخاطبه بقوله: "يا صاحب الجلالة"، وأن يسمي نفسه "الخادم المطيع"، أو "العبد المخلص"، وكانت تيودورا تؤنب بعنف كل من يخل بهذه التعليمات أيًّا كان مركزه ومنصبه.

وأصبح على طالب المقابلة أن يحضر قبل موعدها وينتظر في قاعة

مجاورة، وقد يطول انتظاره إلى ما بعد الموعد المحدد. وكانت تيودورا تتعمد ذلك كأنها تجد تسلية، أو لذة في جعل كبار المملكة يتميزون غيظًا، أو تداخلهم الشكوك في نوايا الإمبراطورة، أو الإمبراطور.

والواقع أن جستنيان لم يكن في قرارة نفسه يقر هذا التصرف، ولكن تيودورا كانت تفرض عليه إرادتها. وإذا قال لها أن دستور الإمبراطورية يحرم معاملة المسئولين بمثل هذه القسوة وهذا الاستهتار، إجابته قائلة:

"أنا أعرف منك بعقلية هؤلاء الناس، إن كبراء مملكتك ليسوا إلا جماعة من المتزلفين، وهم يقبلون حذاءك راضين مسرورين، ولا خوف عليك منهم. أما أبناء الشعب، الذين خرجت أنا من بينهم، فهؤلاء يحملون في نفوسهم من الاعتزاز بالكرامة ما لا أثر له في صدور العظماء، فالعظماء خدم الإمبراطور، أما عامة الشعب فجنوده"

والغريب في هذه المرأة، أنها كانت تلاطف عامة الشعب حقًا، ولا تتعمد تحقير الزائر إن كان واحدًا من بيئة وضيعة، وكانت تقول لزوجها:

"إذا أنت أكرمت عظيمًا من هؤلاء، فإنه سرعان ما يرفع رأسه أكثر مما يجب، ويظن أنك تتزلف إليه كما يتزلف هو إليك، وقد تحدثه نفسه بالانتقاض عليك، وعلى العرش. أما إذا أكرمت واحدًا من العامة، فإنه يحبك، ويخلص لك، ويظل على ولائه، وعلى هذا يجب أن تضرب دائمًا على أيدى الكبار، وأن تحرص على مجاملة الصغار"

وكانت المرأة على حق فيما ذهبت إليه. فإن خضوع عظماء المملكة كان تامًا كاملاً، وكان كل واحد منهم يعرف ما طبعت عليه الإمبراطورة من

كبرياء وحب للسيطرة، فلا يسعه إلا أن يمعن في إظهار الخضوع أمامها، والتزلف إليها.

ولم يكن أولئك العظماء يجهلون أن مخالفة الأوامر والتعليمات، ومحاولة الظهور أمام الإمبراطور –وأمام الإمبراطورة على الخصوص– في مظهر القوى المستهتر، معناه إثارة الحفيظة في نفس تيودورا، وحملها على رفض كل طلب للمخالف، إن لم يحملها هذا على أن تنتقم منه شر انتقام.

وعلى هذا، كانت قاعات القصر تغص كل يوم بطلاب الحاجات من أولئك العظماء، وقد جلسوا، أو وقفوا جامدين خاشعين كالعبيد الأذلاء، وكثيرًا ما كان يرى بينهم أشخاص يشغلون أرفع المراتب، جاءوا من أقصى أنحاء الإمبراطورية، وطلبوا مقابلة الإمبراطورة، فوعدتهم بإجابة طلبهم، وحددت لهم يوم المقابلة وساعتها، ولكنها تركتهم ينتظرون بضعة أيام أو بضعة أسابيع!

وفي الوقت نفسه، كثيرا ما كانت تيودورا تضرب موعدًا لواحد، أو أكثر من عامة الشعب، وتقابله ببشاشة ولطف في اللحظة التي يصل فيها إلى القصر.

وكان الخصيان المكلفون بإدخال الزائرين على الإمبراطورة أو على الإمبراطور، يستغلون الظروف، ويفرضون إتاوة على الراغبين في المثول بسرعة بين يدى تيودورا، أو جستنيان.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن أباطرة بيزنطة هم أول من استخدم هذا النوع من الخدم؛ إذ كانوا يعمدون إلى حرمان طائفة من الأسرى والعبيد من

رجولتهم، لاستخدامهم في جناح الحريم، وقد انتشرت هذه العادة فيما بعد، وانتقلت إلى بلدان أخرى، وعن البيزنطيين أخذها ملوك الفرس والعرب، وغيرهم في الشرق والغرب.

وكان على العظيم الذي يدخل على الإمبراطورة أن يقف، ويتكلم، ويتحرك حسب القواعد المرسومة، المفروض أنه أطلع عليها، وألم بها من قبل، فهو لا يوجه الحديث إلى الإمبراطورة، وعليه أن يجيب عن الأسئلة التي توجهها إليه فقط، والمقابلة لا تستغرق أكثر من بضع دقائق، تلقي خلالها الإمبراطورة سؤالين أو ثلاثة، ويرد عليها الزائر بكلمات مقتضبة، ثم ينصرف بإشارة من تيودورا.

وليس في هذا ما يدعو إلى الدهشة والاستنكار، فإن تيودورا كانت بعيدة النظر، ثاقبة الفكر، سريعة الإدراك، وقد ارتفعت من حضيض الفاقة إلى قمة الغنى، وصعدت من بين الشعب إلى منصة العرش، ودرست أخلاق الناس من جميع الطبقات والبيئات، وإذا كانت قد فرضت تلك المراسم القاسية، فإن ذلك يدل على أنها عرفت كيف تملأ المنصب الذي وصلت إليه، وتكيف سلوكها حسب مقتضيات الجو اللائق بهذا المنصب، وظروف العصر الذي كانت تعيش فيه.

أرادت تيودورا أن تكون ملكة يخشاها الأقوياء ويحبها الضعفاء، لا ملكة يستخف بها الأقوياء ويكرهها الضعفاء.. أو بعبارة أخرى، أرادت تلك الممثلة المتوجة أن يكون الشعب راضيًا عنها، ولم تعبأ بعد ذلك بما يكنه لها أ صحاب المناصب والألقاب.

وقد أشركها زوجها في الملك، فأرادت أن تكون ملكة لا لعبة في يد ملك، ولهذا طالبت بأن تمارس مع زوجها جميع السلطات بلا استثناء، فكانت تقوم بأعمال كالتي يقوم بها زوجها، أو على الأصح كانت تتقاسم معه أعباء الملك في جميع الميادين، فتوزع الأعلام على فرق الجيش، وتسلم شارات القيادة إلى رؤساء هذه الفرق، وتمنح الجوائز للفائزين في المباريات، وتناقش حكام الولايات ومديرى المصالح في شئونوظائفهم.

ورأى العالم في عهدها شيئا لم يره ولم يعهده من قبل: رأى ملكة تقابل ملوكًا جاءوا من أطراف الإمبراطورية لتحيتها، أو لتجديد ولائهم لها، وتتحدث مع الوفود القادمة من مختلف الأقطار والأمصار، وتغدق عليهم الهدايا والهبات.

ولقد كان يهمها استرضاء هؤلاء جميعا: الملوك وأعضاء الوفود؛ لأنها أدركت أن السلام لن يخيم على أجزاء الإمبراطورية، إلا إذا كانت الشعوب التي تضمها هذه الإمبراطورية موالية لها، كما أدركت أن ولاء هذه الشعوب مرهون بحسن المعاملة التي تجدها من الحكام.

ومما قالته مرة لزوجها جستنيان:

"أن اتفاقنا في الرأى على سياسة واحدة قائمة على حسن التفاهم، في البلدان الخاضعة لنا، من العوامل الأولى التي تجعلنى أخلص لك مدى الحياة إخلاصًا لن تشوبه شائبة"

فهى إذن.. لا تريد أن تقوم علاقتها بزوجها على العاطفة فقط، وعلى وحدة الشعور والحب المتبادل، بل تريدها أن تقوم أيضًا على وحدة

النظر في الشئونالسياسية والإدارية، وقد فهمها جستنيان، وجاراها في آرائها، ولم يندم على ذلك، وأنه لما يدعو إلى الدهشة والإعجاب، أن تكون تلك المرأة قد أدركت في ذلك العصر أن الحكم لا يقوم دائمًا على القوة، وأن السياسة التي لا تحسب حسابًا للعاطفة معرضة للفشل والخذلان. فالخطة التي سارت عليها تيودورا طول حياتها كانت تنطوى على مزيج من الشدة، والمكر، واللطف، أما المظاهر التي كانت تحيط نفسها بها، والمواكب التي كانت تشرف على أعدادها بنفسها، فكان الغرض منها التأثير في مخيلة الشعب من ناحية، وإشعار رجال الدولة من ناحية أخرى بأن الإمبراطور والإمبراطورة لا يتساهلان في شيء من مستلزمات الملك، وما تقتضيه من أبهة وجلال.

كانت تيودورا، إذا أرادت الخروج من بيزنطة إلى "بيئينيا" حيث الحمامات المشهورة، تحرص على أن تخرج في موكب لا يقل في فخامته عن المواكب التي كانت تراقفها في الاحتفالات الرسمية بالعاصمة نفسها.. فكان يحف بها اثنان من وزراء القصر، وعدد كبير من النبلاء وأعضاء مجلس الشيوخ، وأربعة آلاف جندى وضباطهم، وبضع مئات من رجال الحاشية والحرس الإمبراطوري، وبذلك كان هذا الموكب أشبه بجيش قادم من نصر، أو ذاهب إلى نصر.

وأهدى إليها جستنيان مساحات شاسعة من الأض في مختلف بقاع الدولة، فوقفت جانبا من وقتها على العناية بهذه الأرض، والإشراف على زراعتها. وكانت تلك الأملاك والمزارع تدر عليها دخلاً عظيما. وتسابق الفلاحون إلى العمل في مزارعها؛ لأنهم لم يكونوا يجدون عند غيرها معاملة

كريمة كالتي يجدونها عندها، فضلا عما يضفيه عليهم انتماؤهم إليها من مكانة مرموقة، واحترام لدى الآخرين.

على أن أعمال تيودورا لم تكن تخلو من التناقض، ففي الوقت الذي كانت تقسو فيه على كبراء الدولة من إمراء، ووزراء، وقواد، ومن إليهم من أصحاب الجاه والنفوذ والثراء، كانت تميل إلى ملاطفة الخدم، والعمال، ومن إليهم من عامة الشعب.

وكانت تحب المال حبًا جمًا، فلا تنأ في السعي للاستزادة منه، ولا تتردد قط في اتخاذ أية وسيلة للحصول عليه، مهما يكن فيها من الإضرار بالغير. ولكنها لم تتعمد إيذاء أحد من الفقراء، والمعوزين، أو العمال، والفلاحين، كما كانت تتعمد إيذاء الأغنياء، وأصحاب الأملاك، والمزارع، والجاه، والسلطان.

وقد حملها حبها للبذخ على التفكير في تشييد قصور جديدة خارج أسوار العاصمة، تقضي فيها الأسرة المالكة ورجال الدولة شطرا من السنة، ولا شك في أنها في ذلك كانت منقادة إلى ميولها كامرأة هوائية تحب التلون والتنقل، ولعلها كانت قد ملت الإقامة في "القصر المقدس" حيث عاش أباطرة الروم مئات السنين، ورغبت في أن يكون لها مقر آخر يحمل اسمها ويخلده.

وجاراها جستنيان مرة أخرى، فحقق لها تلك الرغبة، وأمر بأن تشيد باسمها في ضواحي العاصمة قصور عديدة لا قصر واحد، واختار لذلك أبدع المواقع وأبعدها عن الضوضاء.

ومن بين تلك القصور الجديدة، أعجبت تيودورا كل الإعجاب بقصر "هريا" القائم على الضفة الآسيوية، مطلاً على البوسفور، وقد وصف أحد الشعراء ذلك القصر في قصيدة جاء فيها: "أن عرائس البحر، وحوريات الأنهار يرقصن تحت أفنان حدائقه، ويتسابقن إلى اعتلاء عرش الجمال والدلال فيه" وقال شاعر آخر في قصيدة مدح بها الإمبراطورة: "أن مقرك في هريا يحسدك عليه الأرباب في السماء".

وإلى ذلك القصر الغارق في بحر من الخضرة، والأغصان، والأزهار، كانت الأسرة المالكة تذهب لقضاء الأيام الأولى من موسم الحصاد، ومن موسم قطف العناقيد في الكروم. وكانت الإمبراطورة تذهب إليه أحيانًا وحدها، فلا يرافقها الإمبراطور. ولكنها كانت تصر على أن تصحبها حاشية كبيرة، وجيش من الخدم، والوصيفات. وكان هؤلاء جميعًا يشكون من أنهم–في ذلك القصر البعيد عن وسط المدينة– لا يجدون كثيرًا من الأشياء التي يحتاجون إليها، فضلاً عن أن ركوب القوارب إلى الشاطئ الآخر كان يقلقهم ويبعث الخوف في نفوسهم؛ ذلك لأن حيوانًا بحريًا هائل الحجم كان في ذلك الحين يجوب بحر مرمرة ويتجول في مياه المضايق، من غير أن يتمكن الصيادون من اقتناصه أو طرده، ولم يكن ذلك الحيوان غير حوت جاء من حيث لا يدرى أحد، ودخل إلى تلك المياه الضيقة، حيث جعل يهاجم القواررب، والسفن، ويقلبها بمن فيها. وكان طول ذلك الحوت نحو عشرين ذراعًا، أو أكثر، ولم تقع العين على مثله من قبل في تلك الجهات. وقد ظل نحو خمسين سنة ينشر الرعب في مياه بيزنطة. ولما بلغ تيودورا أن حاشيتها تخاف ركوب البحر بسبب ذلك الحوت،

ضحكت، وقالت:

وأنا؟!. أتخافون على أنفسكم، ولا تخافون عليَّ أنا؟.. إنني أعرض نفسي للخطر ذاته الذي تعرضون له أنفسكم، فأنا أركب سفينة مثلكم، ثم أي شعب هذا الذي يخاف من سمكة في البحر؟!

ولما قيل لها: أن السمكة التي تتحدث عنها بمثل هذا الاستخفاف والاستهانة طولها عشرون ذراعا، وأنها تقلب القوارب والمراكب بضربة واحدة من ذيلها الهائل، تمادت في الضحك والسخرية، وأمرت بأن يكون موكبها منذ ذلك الوقت مكونا من قوارب صغيرة بحيث تتعرض لخطر الانقلاب، وتتعرض له هي قبل سواها.

ودبت الحماسة في النفوس أمام هذا التأنيب الذي وجهته تيودورا إلى قومها، وأصدر الإمبراطور أوامره إلى صيادى العاصمة بأن يطاردوا ذلك الحوت جماعات جماعات إلى أن يطهروا مياه البوسفور منه بأية طريقة من الطرق.

وانطلق الصيادون ينفذون أوامر سيدهم، وخرجت تيودورا معهم لمشاهدة المطاردة، ولكن الأيام مرت من غير أن يعثروا على أي أثر لذلك الحوت العظيم.

وذات مساء، ذاع في العاصمة خبر، طرب له الناس كل الطرب، وابتهجوا أعظم الابتهاج، فقد رأى الفلاحون عند مصب نهر "سنغاريوس" جسمًا ضخمًا جاثمًا على الشاطئ بين الصخور والرمال. ولما اقتربوا منه، أدركوا أنه جسم ذلك الحوت، وتبين أنه كان يطارد سربًا من الأسماك

الصغيرة فاندفع إلى الشاطئ، وعاقته الرمال والصخور عن الرجوع من حيث أتى، فأصبح أشبه بالسجين عند مصب النهر الصغير، وهكذا استطاع الفلاحون أن يجهزوا عليه ضربا بالفئوس والخناجر، ثم اقتسموا لحمه وعظمه.

ولما علمت تيودورا بما حدث، ضحكت أيضًا وقالت:

لقد أنقذكم الحوت من نفسه بنفسه، بعد أن عجزتم عن النيل منه وهو في عرينه بالبحر، ولم يجرءوا على الاقتراب منه والاعتداء عليه إلا وهو سجين لا يقوى على الحراك. وعلى كل حال ما دام ذلك الحوت قد مات، فإن هذا يكفي لكيلا يبدي أحد منكم–بعد الآن– مخاوفه من ركوب القوارب والانتقال بها من شاطئ إلى آخر.

ولم تكن تيودورا تحسب حسابا لما يبديه الناس حولها من آراء وما يعبرون عنه من شعور، وكانت تقول للمقربين منها:

إنني حرة في أن أحيا الحياة التي أريدها، ولن أسمح لأحد أن ينتقدني إلا إذا أقدمت على الإساءة إلى فرد، أو إلى جماعة من أبناء الشعب، ولكن مادمت لا أُلحق ضررًا بأحد، فليس عليَّ أن أقدم حسابًا على ما أصنع إلا لزوجي الإمبراطور.

وكانت إذا أقدمت على عمل من شأنه أن يبعث السرور إلى نفسها، لا يهمها في كثير ولا قليل أن يرضى الناس عن عملها هذا، أو يسخطوا!... ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تثنيها عن عزمها، أو تحملها على العدول عن أمر قررت الإقدام عليه.

وقد خطر لها ذات يوم أن تدعو إلى قصرها بعض النساء اللواتي عرفتهن من قبل، عندما كانت تحترف التمثيل في ملعب بيزنطة. وكان بين أولئك النسوة راقصة تدعى "كريزومالو"، وممثلة تدعى "اندارو"، وقد بالغت في إكرام صديقاتها وزميلاتها القديمات، فأقامت لهن أفخم المآدب، وأغدقت عليهن من الهدايا والهبات ما أطلق كثيرًا من الألسنة بالانتقاد.

وبلغ تيودورا أن حاشيتها غير مرتاحة إلى ما فعلت، فعمدت إلى التحدي، وعينت الراقصة، والممثلة المكورتين في وظيفتين رسميتين بمجلس الشورى الخاص بالإمبراطورة.

وقالت في تعليل ذلك:

أن آراء الممثلة والراقصة قد تكون أحيانا أكثر فائدة وأقرب إلى الصواب من آراء النبيلات وبنات الأسر الكبيرة، فنحن هنا ننظر في شئونالشعب البيزنطي ونرعى مصالحه، وإذا لم نصغ إلا إلى الآراء التي تمثل مطالب الطبقة المترفة، فإننا نكون قد ظلمنا أنفسنا بإهمال الطبقة الكادحة الفقيرة، وجهل مطالبها في حين أنها تمثل أكثرية الشعب، ولهذا أعتقد أن وجود ممثلة، وراقصة في مجلس الشورى الخاص بالإمبراطورة أكثر فائدة من وجود نساء لا يعرفن من الحياة غير صفحاتها الناصعة، ونواحيها المذهبة.

لقد كان يسعد تيودورا أن تظهر عطفها على رفيقاتها السابقات، ووفاءها للوسط الذي خرجت منه، في الوقت الذي كانت تحرص فيه على إن تبدو متكبرة متعجرفة إزاء بنات الأسر النبيلة المتعجرفات! وما كان تعيينها لصديقتيها الراقصة والممثلة في مجلسها الخاص إلا وسيلة إلى بلوغ

غرضها المنشود، وإيثارها بالعطف والتقدير عامة الشعب على فريق الخاصة.

والواقع أنها برغم امتزاجها التام بالبيئة التي رفعتها الأقدار إليها، ما كانت لتنسى أو تتناسى تلك البيئة التي خرجت منها، وقد ظلت تحن إلى مهنتها الأولى، مما دفعها بين حين وآخر إلى الالتجاء في تصريف شئونالدولة إلى الأساليب التي كانت تجيدها من قبل وهي تعمل على مسرح التمثيل، ومن تلك الأساليب التنكيت، ورواية النوادر والحركات المسرحية، والتعبيرات الهزلية الممزوجة بكلمات لم تطرق عادة آذان سكان القصور.

كانت النكتة على طرف لسانها في كل ظرف وكل حال، وقد أعانها على ذلك أنها كانت سريعة الخاطر إلى مدى بعيد. فإذا جاءها أحد وشكا إليها تصرفات بعض أفراد أسرتها، أو بعض المقربين إليها من رجال الحاشية، أو نسائها، فإنها سرعان ما تتخلص من المآزق بنكتة تنبعث من بين شفتيها مصحوبة بتلك الابتسامة الخلابة الكفيلة بأن تسكت كل معترض وتُرضي كل ناقم.

وإذا جاءها شخص مزعج لجوج، وألح عليها طالبًا منها أمرًا لا تقدر عليه، أو لا تريد تنفيذه، فإنها كانت تعمد أيضًا إلى التنكيت، أو إلى تغيير مجرى الحديث بطريقة تمثيلية مصحوبة بحركات مضحكة تجعل طالب الحاجة يكتفى بالكلام الحلو، ويقنع من الغنيمة بالإياب.

وحدث مرة أن كان أحد النبلاء ممن شغلوا في الماضي أرفع المناصب، مدينًا بمبلغ من المال لواحد من خدم تيودورا، وعجز عن سداد دينه،

ففكر في عرض الأمر على الإمبراطورة، على أمل أن يثير عطفها واهتمامها فتنقذه مما هو فيه.

ولما طلب الرجل مقابلتها سارعت إلى إجابة طلبه، وحددت له موعدًا قريبًا استقبلته فيه وهي بادية الفرح والاغتباط، ولكنها في الوقت نفسه عملت إلى إعداد مشهد مسرحي أشرفت على إخراجه وتمثيله خلال تلك المقابلة، فجاءت بنخبة من خدمها، ووزعت على كل منهم دوره في المسرحية التي ابتكرتها، وما كاد ذلك النبيل المدين يدخل إلى قاعة الاستقبال في جناح الحريم، حتى وجد نفسه أمام الإمبراطورة، وقد اصطف حولها أولئك الخدم على هيئة هلال، وانحنوا حتى مست جباههم الأرض مسلمين.

وتقدم الرجل وركع أمام الإمبراطورة، فسألته أن يبسط لها طلبه، فمضى يقول:

يا صاحبة الجلالة، أنه لشيء فظيع أن يكون رجل مثلي، من النبلاء وأعضاء مجلس الشيوخ، مدينًا بمبلغ من المال لأحد الخدم.. إن المدين من عامة الشعب تثير حالته الشفقة، أما المدين من النبلاء فإن حالته تكون مدعاة لاحتقار الناس إياه، فالفقير حين يعجز عن الدفع، يعلن عجزه بلا خوف ولا وجل، أما النبيل فلا يفعل ذلك؛ لأنه يعده عارًا وعيبًا؛ ولأن الناس لا يصدقون أن النبيل عضو مجلس الشيوخ يمكن أن يكون معدمًا إلى حد يعجز معه عن تسديد دينه، وأنا يا صاحبة الجلالة مدين، ولي عند الناس ديون؛ أي إنني في آن واحد دائن ومدين.. ولكن لا يسعني أن

أشايق المدينين لي، وألح عليهم في أن يدفعوا لي ما عليهم؛ لأن هذا ليس من شيمة النبلاء، أما أصحاب الدين الذي عليَّ فهم يلاحقونني ويلحون عليَّ أن أدفع؛ وذلك لأنني أيضًا من النبلاء، فلابد أن أكون قادرًا على الدفع.. أليس هذا مما يحير العقل؟.. ولهذا جئت إليكِ يا صاحبة الجلالة أطلب تدخلك لكي تنقذيني مما أنا فيه، وأصغت تيودورا إلى الرجل حتى انتهى من كلمته، ثم قالت بلهجة مفعمة باللطف:

– يا عزيزي النبيل، يخيل إلى أن...

ثم سكتت فجأة، بينما أنطلق الخدم الواقفون قائلين في صوت واحد إتماما لعبارتها حسب تعليماتها:

– .. إن في بطنك ورما.

فدهش الرجل لهذه المباغتة، وأراد أن يتكلم، فاستطردت تيودورا تقول:

– وسبب هذا...

وسكتت فقال الخدك معًا:

– وسبب هذا أنك ابتلعت أموال الفقراء.

واضطرب الرجل، وانتابته رعشة عقدت لسانه عن النطق، بينما قالت تيودورا:

– وأنت تريد...

فأتم الخدم عبارتها قائلين:

– أن تأخذ من الفقير ماله.

– ولا تريد...

– أن تدفع للفقير ما عليك.

ثم أخذ الخدم يرددون: "إن في بطنك ورمًا... إن في بطنك ورمًا" حتى تراجع النبيل المسكين، وخرج من الباب وهو لا يلوى على شيء.

قد يكون في هذا الأسلوب سماجة لا يستسيغها الذوق السليم في عصرنا هذا، أما في ذلك العهد، فإن هذا النوع من التشنيع والسخرية كان يعد من أنواع الفنون الراقية، ولا شك في أن تيودورا كانت تعلم علم اليقين، قبل أن يجيئها الرجل لبسط شكايته، ماذا يريد، وإذا كان حقيقة قادرًا على الدفع أم عاجزًا عنه، ولا شك أيضًا في أنها كانت واثقة من أنه يتظاهر بالعجز عن الدفع رغبة منه في أن "يبتلع أموال الفقراء"، كما علمت الخدم أن يقولوا له، وأن يحتفظ بورم بطنه الناتج عن أكل تلك الأموال بالباطل.

وإذا كانت تيودورا قد عمدت من وقت إلى آخر –في داخل جناحها بالقصر المقدس– إلى اتخاذ تلك الأساليب التي أجادتها وهي ممثلة، فإنها لم تكن تسمح لأحد بأن يذكرها بماضيها، وبالأيام التي كانت فيها تسلى الناس بمسرحياتها، وتنكيتها، ورقصها.

كانت تعطف على زميلاتها السابقات، ولكنها لا تغفر لمن يحدثها عن تلك النسوة بوصفهن زميلات لها في عهد مضى. وهذه أيضًا ناحية من

نواحي التناقض في تلك المرأة الغريبة الأطوار.

على أنها منذ اعتلائها العرش، لم تقدم على أي عمل طائش من شأنه أن يجعل زوجها، أو يجعل الناس من حولها، يعيبون عليها ذلك العمل، بحجة أنها خرجت من بيئة تفصل بينها وبين الأسرة المالكة هوة اجتماعية سحيقة، فقد تسربلت برداء الملك، وعرفت كيف تصونه من العار بعد صعودها إلى القمة، برغم ما أقدمت عليه من أعمال معيبة في ماضيها القديم.

كانت غانية تتاجر بجمالها، وتعرض قلبها للبيع والشراء، ولكنها لم تندفع في أية مغامرة غرامية وهي إمبراطورة. وبقدر ما كانت في ماضيها مستهترة مبتلة، كانت وهي ربة التاج والصولجان حريصة كل الحرص على سمعتها، حافظة لمكانتها، سالكة طريق العفاف، والطهر، والوفاء لزوجها الذي رفعها إلى أعلى مكان.

سوق الأخبار

كانت تقام كل يوم في بيزنطة تحت قناطر مدخل القصر الإمبراطوري سوق فريدة في نوعها: هي "سوق الأخبار"، ففي ذلك الحي المكتظ بالسكان حول القصر المقدس، تكثر الحوانيت المعدة لبيع المخطوطات أدوات الكتابة، والرسوم، والتماثيل، وغيرها. وهناك يلتقي الكثيرون من المثقفين، والأدباء، والمتأدبين، ومدعي الفلسفة، يقفون داخل هذه الحوانيت، أو على أبوابها؛ ليتبادلوا الثرثرة، بينما تجتذب أحاديثهم المارة، فسرعان ما يلتفون حولهم.

ولقد كانوا يتحدثون في كل شيء، ويخطبون في كل شيء، في العلوم اللاهوتية، والطب، وفي السياسة والدين، والشئونالاقتصادية والاجتماعية.. كما كانوا يعلقون بآراء مختلفة متباينة على كل حادث يقع في المدينة، أو في القصر الإمبراطوري.

ولا شك في أن عامة الناس كانوا يتأثرون إلى أبعد حد بأقوال أولئك الفلاسفة والخطباء؛ لأن هؤلاء يحسنون الأداء ويجيدون التمثيل، فيتكلمون بصوت جهوري، ولهجة مقنعة، ويدعمون خطبهم بحركات مسرحية، يقف الجمهور أمامها مشدوها، فيصغي ويصفق، سواء أكان مقتنعا أم غير مقتنع بما يسمعه منهم؟

والواقع أن أكثر أولئك الثرثارين، لم يكونوا من ذوي العلم الواسع، والأدب الصحيح، بل هم من المرتزقة الذين اتخذوا الثرثرة حرفة، مستغلين قدرتهم على رص الكلام بعضه فوق بعض بمهارة وسهولة، وهم إما أنصاف متعلمين، وإما سكارى لعبت الخمر برءوسهم، وأطلقت ألسنتهم بدل أن تعقدها عن الكلام.

هكذا كان موقف الشعب من خطباء تلك الحوانيت، أما الخاصة فكانوا ينظرون إليهم بعين الاحتقار، أو عدم الإكتراث، ويعدونهم من المتزلفين الراغبين في استغلال سذاجة الناس، وحماقة أصحاب النفوذ.. بدليل أنهم يعمدون إلى كيل الثناء والمديح للعظماء الذين يجزلون لهم العطايا والهبات، فإذا كف هؤلاء أيديهم عن البذل والعطاء فسرعان ما ينقلب المدح إلى ذم، والثناء إلى هداء.

أما هؤلاء الثرثارون أنفسهم، فكانوا لا يلقون بالاً إلى آراء الخاصة من المثقفين والعقلاء فيهم، وإذا كان هؤلاء يضحكون من أقوالهم ولا يعيرونها اهتماما، فحسبهم أن موقف الشعب منهم يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فهو يبالغ في تقديرهم، ويضيع الساعات الطوال في الإصغاء إلى خطبهم، ويصدق كل ما يروونه له من أنباء، ونوادر، وفضائح، خصوصًا إذا كان الخطيب منهم عائدًا من سفر بعيد من إحدى الولايات النائية.

وكان من بين أولئك الخطباء رجل يمارس الطب ويدّعي الفلسفة، اسمه "أورانيوس" نجح في التقرب من كسرى، وأقام حينًا من الزمن في إيوانه، ثم جاء إلى بيزنطة وأنخرط في زمرة خطباء الحوانيت أمام مدخل القصر، وكان بارعًا لبقًا في أحاديثه إلى الناس، وحينما يأخذ في الخطابة، يحرص على اختيار العبارات الطنانة الرنانة، ويكثر من الحركات المسرحية، وبين حين وآخر، يخرج من جيبه أوراقًا لينشرها أمام الأنظار قائلا:

– هذه رسائل كسرى إلى أورانيوس.

ثم يتلو هذه الرسائل على سامعيه، فلا يسع البسطاء منهم إلا أن يتلقوها بمزيد من التصفيق الحاد، والإعجاب بالفيلسوف الطبيب الذي ظفر من كسرى –ملك الملوك– بأحسن التقدير والتكريم.

وفي كثير من الأحيان، كان يحلو لأورانيوس أن يروي لسامعيه بيانات غريبة عن دخائل السياسة العليا، وما إليها من أسرار يزعم أن ليس هناك من يعرفها سواه، فيتلقفها السامعون في غبطة وابتهاج، ويحدث كل منهم

نفسه قائلا: "أن رجلا هذه مكانته، لا يمكن إلا أن يكون مطلعًاعلى أسرار السياسة ودخائل الأمور".

وعلى هذا الأساس كان كثير من العظماء يتسابقون إلى ود "أورانيوس" ويجزلون له العطاء؛ لكي يمدحهم أمام الشعب.

والواقع أن خطة أورانيوس هذه كانت هى الخطة المفضلة لدى جميع الخطباء في ذلك العهد، وما زالت وستبقى إلى آخر الدهر خطة أمثالهم من طلاب المنفعة، ومستغلي الجماهير الساذجة،وأذناب الكبراء وذوى الثراء. ومن هنا كانت القسطنطينية في عهد جستنيان –كغيرها من عواصم العالم الكبرى– ملجأ لجماعات من العاطلين، واللصوص، والنصابين، والشحاذين، كما كانت في الوقت نفسه ملتقى أفراد الفئة المختارة الممتازة من المثقفين، وأصحاب العقول الراجحة، والآراء السديدة. فكان كل خبر مثير، وكل نبأ غريب، وكل تعليق على خبر، يجد في الأوساط البيزنطية آذانا صاغية، فيصدقه الناس، وتتناقله الألسنة.

غير أن "سوق الأخبار" في العاصمة الرومية لم تكن تجاريها أية سوق أخرى من نوعها في العالم، فهي كما قلنا فريدة لا مثيل لها، وكثيرًا ما كانت خطبة يلقيها واحد من أولئك الثرثارين المأجورين، أو الموتورين، تحدث في جموع السامعين قلقًا، أو اضطرابًا، أو هياجًا، فيختل الأمن في العاصمة ساعة، أو ساعات.

وكان البيزنطيون أنفسهم كثيرًا ما يعمدون إلى الإتيان بأعمال شاذة يغلب عليها طابع البرود والسماجة، أو المزاح الثقيل الذي يتفق مع طريقة

حياتهم، وتربيتهم، ونظرتهم إلى الحياة، وإلى العلاقات بين الناس.

وفي ذلك العهد نفسه، كان يعيش في بيزنطة رجل فيلسوف مشهور يدعى "زينون"، وكان راجح العقل، عميق التفكير، تجله الخاصة وتحترمه، وقد اشتهر بأن له جارًا من المهندسين يدعى "انطميوس" لا يفتأ يدبر له المكايد لمعاكسته، ومشاكسته، والسخرية منه؛ إشباعًا لحقده عليه، وميله إلى الانتقام منه. وحدث في ذات يوم أن عمد ذلك المهندس إلى حيلة غريبة لتخويف جاره الفيلسوف، وإظهاره بمظهر يدعو إلى الاستهزاء به، فأعد أوانى كبيرة كثيرة في قبو مسكنه، ثم ملأها بالماء، وأوقد تحتها النار حتى وصل الماء إلى درجة الغليان، ثم غطى تلك الأوانى، وأوصل بأغطيتها أنابيب من الجلد، مد أطرافها الأخرى إلى قبو مغلق بمسكن جاره الفيلسوف فانبعث إليه البخار الصاعد من الماء المغلى في الأواني، ولم يمض إلا قليل حتى أمتلأ ذلك القبو المغلق بالبخار، وأحدث في البيت كله ما يشبه الزلزال. وما كاد الفيلسوف زينون يشعر بذلك حتى استولى عليه الرعب، وهرع إلى الطريق صائحًا مستنجدًا، متسائلاً عما عسى أن يكون الزلزال قد أحدثه من أشرار لدى الجيران.

وضحكت بيزنطة كلها لهذا "الفصل البارد" الذي دبره للفيلسوف الوقور جاره المهندس الخبيث.

ولم يكتف انطميوس بهذا الفصل، فجاء ببعض المرايا، وربطها بقطع من المعدن، وأعد جهازًا يحركها بحيث تنعكس منها أشعة الشمس وتحدث أصواتًا توهم أن هناك برقًا ورعدًا، ثم أخذ يسلط هذا الجهاز الجهنمي على

جاره الفيلسوف في مسكنه المجاور له، في الأوقات التي يخلو فيها إلى نفسه، فكانت النتيجة أدهى وأمر؛ إذ اعتقد زينون أن ما يراه ويسمعه من برق ورعد أنما هو حركات لأرواح سماوية تطارده لتفسد عليه خلوته وتحول دون مضيه في تفكيره الخاص بالفلسفة واللاهوت. ولم يسعه بعد أن تكرر ذلك إلا أن هرع إلى الإمبراطور وأفضى إليه بمخاوفه هذه، وسرعان ما انتشر النبأ بين رجال الحاشية، ثم بين الناس جميعا، وتبينوا أن الأمر كله من تدبير المهندس انطميوس، فشاركوه في الضحك والسخرية من زينون المسكين.

على أن اهتمام البيزنطيين بهذه المداعبات الثقيلة لم يكن شيئًا يستحق الذكر بالقياس إلى اهتمامهم الشديد بالمسائل الخاصة بالتنبؤ، ومعرفة الغيب، وما يخبئه المستقبل؛ ذلك لأن بيزنطة في ذلك العهد كانت أشبه بمتحف تكدست فيه مخلفات الأديان الوثنية منذ العهدين اليوناني والروماني، وكانت لذلك تعج بتماثيل الآلهة من كل حجم ونوع، ولكل تمثال من هذه التماثيل أسطورة –أو أساطير عجيبة– يستمع إليها العامة، وكثيرون من الخاصة في خشوع وإيمان، معتقدين أن هناك قوة كامنة تتجلى من وقت إلى آخر في أحد تلك التماثيل، فتجعله قادرًا على أن يأتي بالمعجزات.

ولم يكن الدين المسيحي الذي أصبح دين الدولة والشعب قد قضى بعد على ما علق بالأذهان من خرافات الوثنية جيلاً بعد جيل، وعلى هذا كان البيزنطيون يعتقدون أن تمثال الثور النحاسي القائم بجوار الملعب يجأر من وقت إلى آخر. فإذا جأر وسمعه الناس، فإن ذلك يعد نذير شؤم، ويعنى

أن كارثة ماحقة سوف تحل بالعاصمة.

كذلك كانوا يعتقدون أن النقوش الظاهرة على أحد جدران الملعب من الغرب، تضم بين سطورها الغامضة تميمة رهيبة، لم يستطع أحد فك رموزها لمعرفة معناها. ولهذا تعودوا أن يمروا أمامها مسرعين، بينما يرسمون على صدورهم شارة الصليب لكي يدفعوا شرها عن عاصمتهم.

وهناك جدار آخر من جدران الملعب كانت للنقوش التي عليه شهرة عجيبة بين طبقات الشعب البيزنطي على اختلافها، فهي عند أكثرهم طلاسم سحرية سجلت عليها حوادث المستقبل بالتفصيل، وقد تناقل الرواة أن المنجم "أبولونيوس" تمكن من فك بعض رموزها، فعرف جميع أسماء الأباطرة الذين سيرتقون عرش بيزنطة، وآخرهم إمبراطور اسمه "قسطنطين" تنهار بعده الدولة، وتقع عاصمتها في قبضة غزاة من الشرق.

وأغرب ما في الأمر أن هذه النبوءة قد تحققت بعد ذلك بحوالى تسعة قرون، فسقطت بيزنطة أو القسنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣م، وكان هذا على عهد الإمبراطور قسطنطين.

وقد كان جستنيان يكره المنجمين، ويحارب ميل الشعب إلى تصديقهم النبوءات والإيمان بالأساطير الخاصة بالتماثيل، والرسوم، والنقوش، وكان رجال الشرطة يجدّون في مطاردة المنجمين ومروجي الإشاعات، ولكن هذا كله لم يضع حدًا لانتشار تلك النبوءات المقلقة المزعجة؛ لأن الإيمان بها كان قد وصل إلى حد المعتقدات الدينية.

وعلى ذكر هذه المعتقدات، نقول أنها كانت بدورها تثير اهتمام

الشعب، وتسيطر عليه إلى أبعد حد، وكان أكثر الناس في ذلك العهد يؤمنون بكل ما يروى ويروج عن المعجزات الخارقة التي تمت أو تتم على أيدى رجال الدين.. ولا شك في أن شعبًا تتنازعه كل هذه المعتقدات، والخرافات، والأخواء خليق بأن يقف حائرًا أمام كل حادث خارج عن المألوف، ولا يسعه إلا أن يعده تدخلاً من السماء، وأن يلمس خلفه أصابع القديسين والعالمين بفنون السحر والتنجيم.

وقد جرت عادة رجال الدين حينذاك على أن يوزعوا على تلاميذ المدارس ما يتبقى من "الخبز المقدس" الذي يعده القساوسة لكنائسهم، وذلك على سبيل التبرك والإحسان معًا. فحدث مرة كما تروى إحدى الشائعات: أنه كان بين تلاميذ إحدى المدارس صبي يهودي يعمل أبوه في صناعة الزجاج، وكان من عادة ابنه أنه يمر عليه في مصنعه بعد انصرافه من المدرسة. فما كاد الصبى يخبر أباه بأنه أخذ نصيبه من ذلك الخبز وأكله حتى جن جنون الرجل، واشتد حنقه عليه لأكله ذلك الخبز الذي يباركه رجال الدين المسيحى ويقدمونه لأتباع دينهم إحياءً لذكرى "العشاء السري" الذي قاسم فيه السيد المسيح رسله وأنصاره الأولين. وبلغ من شدة غيظ اليهودي صانع الزجاج أنه لم يتمالك نفسه، فرفع ولده الصغير بيديه وقذف به إلى داخل الفرن الموقد الذي كان واقفًا أمامه، ثم أغلق عليه باب الفرن وتركه هكذا حتى تأتي عليه النار.

وبعد ثلاثة أيام خرجت أم الصبى للبحث عنه في أنحاء المدينة، ثم توجهت إلى مصنع زوجها لعلها تجد عنده خبرًا عنه، وفيما هي تتحدث مع زوجها بالقرب من الفرن، سمعت صوت ابنها يناديها من خلف بابه الحديدي

المغلق، فسارعت إلى فتحه، ولشد ما كانت دهشتها، ودهشه زوجها نفسه، حين خرج الصبي من الفرن حيًا سليمًا لم تمسسه النيران بأي سوء!

وروى الطفل لأمه أن سيدة جميلة ترتدى ثوبًا أرجوانيًا ظهرت له في داخل الفرن، فأبعدت عنه النيران، وقدمت له الطعام والماء.

وشاع الأمر بين الناس، فآمن أكثرهم بأن تلك السيدة هي مريم العذراء، واعتبروا هذه المعجزة دليلاً على أن الصبى وأمه كانا قد تنصرا في الخفاء، ولم يمض إلا قليل حتى قبض على والد الصبى وشنق عقابًا له على محاولة قتل ابنه.

وقد رويت حوادث مماثلة أخرى لا تقع تحت حصر، فلم يكن يمر يوم دون أن يشاع في المدينة أن قديسًا من القديسين، أو وليًا من الأولياء قد أتى بمعجزة مع واحد أو عدد من السكان الورعين الأتقياء، وكان الشعب يركع في الشوارع ويصلي في خشوع وإيمان كلما سمع بمعجزة من تلك المعجزات، ثم يشكر الله على حسن عنايته بالبيزنطيين.

وكان الشعب أكثر تصديقًا لكل ما يروى من هذا القبيل عن الإمبراطور، والإمبراطورة، والحاشية، ولما كانت حياة جستنيان وتيودورا خلف أسوار القصر المقدس يحيط بها كثير من الغموض، فقد امتازت الأقاويل المروية عنهما بأنها أعجب وأغرب؛ لأن أكثرها كان من نسج الخيال.

كان الإمبراطور يقضي معظم أوقاته في تلك العزلة، بعيدًا عن أعين رعاياه، فانتشرت لذلك إشاعات تؤكد أن عزلته هذه إنما تعنى انشغاله

بالاتصال خِفية؛ أما بالملائكة، وأما بالشياطين.

وقد تعود الإمبراطور أن يأوى إلى فراشه في ساعة متأخرة من الليل، وأن ينهض في ساعة مبكرة من الصباح، كما تعود أن يغادر مخدعه أحيانًا في جنح الظلام؛ ليجلس إلى مكتبه ويواصل الأعمال التي صرف فيها نهاره، وكان يفعل هذا لأنه جم النشاط لا يعرف التعب، ولا يحب أن يؤجل إلى الغد ما ينبغى أن يصنعه في يومه، ولكن أفراد الشعب أبوا إلا أن يفسروا ذلك تفسيرًا عجيبًا، فراجت بينهم عن ذلك أغرب إشاعة سمعت عن ملك في أى عصر من العصور؛ وهي أن الإمبراطور جستنيان حين يخرج ليلاً من مخدعه ويطوف في ممرات القصر وأحيانا في طرقات الحديقة، يبدو لمن يراه جسمًا بلا رأس في أول الأمر، ثم يعود رأسه إلى جسمه في نهاية المطاف هابطًا من السماء حيث كان هناك لسبب خفي لا يدركه إنسان!

وكذلك راجت إشاعات أخرى تؤكد كل التأكيد أن المقربين من رجال الحاشية الإمبراطورية، يشعرون أحيانا، وهم وقوف حول الإمبراطور بأن شيئًا غير طبيعي قد انتابه فجأة، ثم يرون وجهه يعلوه الشحوب، ويتقلص حاجباه تدريجيًا حتى لا يبقى لهما أي أثر، ثم سرعان ما تلحق بهما عيناه فتغوران وتختفيان، وهكذا يبدو لناظريه، وكأنه خرج من صورته البشرية وأصبح روحًا متشحة بالضباب.

وعلل الكثيرون ظاهرة تحول جستنيان من جسم إلى روح، بعد أن تناقلتها الألسنة, وأقرتها العقول، بأن الإمبراطور في حالته الأولى يكون

على اتصال بالأرواح الشريرة والشياطين، أما في حالته الأخرى فيكون على اتصال بالأرواح الخيرة والملائكة.

وزاد الناس على ما تقدم أن الراهب "زوراس" كان في القصر ذات يوم، فرأى الإمبراطور وهو يتحول أمامه على ذلك النحو، ولم يسعه إلا الركوع فورًا، حيث جعل يصلي ويبتهل إلى الله، حتى شفي الإمبراطور من نوبته وعاد إلى صورته الطبيعية.

وتناقل الناس خبرًا أعجب مما تقدم، فقالوا:

أن الناسك "سابا" الذي كان يعيش في صومعته بأرض فلسطين على مقربة من القدس، توجه يومًا إلى القصر المقدس ليقابل الإمبراطور، ودخل عليه في قاعة العرش حيث كان جالسًا وحده، ولكن الناسك سرعان ما غادر القاعة مهرولا مذعورًا، كمن به مس من الجنون، وقال لمن كانوا بالباب حينذاك:

"أن الإمبراطور ليس في القاعة.. أما الشخص الجالس فيها متربعًا على العرش فلاشك في أنه شيطان!"

وكان بين رجال الحاشية ورفاق الإمبراطور وخدمه من ينكرون رؤيتهم هذه الخوارق، ولكن أكثر هؤلاء جميعًا كانوا يؤكدون وقوعها على مرأى ومسمع منهم، ويتبعون ذلك بأغلظ الإيمان.

وأخيرا، شاع الخبر الأكبر، والعجب العجاب، فروى الناس بعضهم لبعض أن الإمبراطورة الوالدة، أم جستنيان اعترفت لراهب من النساك

بأنها في صباها خانت زوجها، ووقعت في غرام مخلوق من غير سكان الأرض، وأن ذلك العاشق الذي جاءها من عالم الأرواح، وتجسم لها في صورة إنسان قد تبخر أمامها واختفى كأنه نفخة من دخان، ولكن بعد أن جاء أبنها جستنيان ثمرة ذلك الغرام الشيطاني العجيب!

وهكذا، صار الناس يعتقدون أن إمبراطورهم النابغة الحكيم الإداري المحنك، إنما هو ابن عفريت من الجن، وأصبح من السهل على سكان بيزنطة، الذين راجت بينهم هذه الخرافات، والأساطير أن يفسروا كل عمل من أعمال جستنيان بأنه من وحي الملائكة أو الشياطين.

وقد كان الإمبراطور جستنيان مسرفًا ينفق الأموال بلا حساب، ولم يكن أحد يعرف من أين يأتي بكل ما ينفقه من فضة وذهب، يفوقان دخله الخاص، وما يدره خراج الدولة على بيت المال، إلى أن روى أحدهم القصة التالية فصدقها الناس، وهي: أن جستنيان كان مرة يتفقد سير الأعمال في أثناء تشييد كنيسة آيا صوفيا العظيمة، وكان الحزن مرتسما على وجهه؛ لأنه في حاجة إلى المال اللازم لمواصلة البناء، فوقف فوق صقالة من الخشب وانهمر الدمع من عينيه، ثم إذا به يلمح أحد خصيان القصر مسرعا إليه، ولما اقترب منه قال الخصي: "لا تكتئب يا مولاى من أجل المال ولا تشغل بالك بالبحث عنه.. إنني أطلب منك أن تضع غدًا تحت تصرفي لفيفًا من رجال الحاشية وذوى المناصب الرفيعة، وأتعهد بأن آتيك بما تريد من مال".

ولم يلتفت جستنيان إلى ما قاله الخصي وظنه يمزح، ولكن هذا عاد في

اليوم التالى يلح على الإمبراطور قائلا: "أعطنى من طلبتهم منك أمس لكي أعطيك ما تطلب، هيا يا مولاى ولا تتردد"

وعجب الإمبراطور من إلحاح العبد عليه، وأمر بعض أخصّائه بأن يذهبوا معه إلى حيث يريد، فذهب معه ستراتيجيوس مدير الخزينة، وباسيليدس رئيس الحسابات، وكولوكنتاس محافظ العاصمة، ومعهم آخرون، وعشرون من البغال القوية، حتى إذا بلغوا إحدي الضواحي وقف العبد فجأة هناك، حيث وجدوا أنفسهم أمام قصر بديع لم يشاهدوه من قبل، ثم دعاهم إلى الترجل عن خيولهم ففعلوا، ودخل بهم إلى القصر حيث قادهم إلى قاعة ملئت بالقطع الذهبية، وتناول مجرفة وراح يغترف بها المال، ويملأ به الأكياس التي حملوها معهم، ويأمرهم بوضعها على البغال، فلما انتهى من ذلك أمرهم أن يعودوا أدراجهم إلى حيث ينتظرهم الإمبراطور، ويسلموه تلك الأحمال الذهبية، ريثما يلحق بهم بعد أن يوصد أبواب القصر السحري؛ كي لا يدخله أحد سواه بعد ذلك.

وذهل جستنيان لرؤية تلك الأكوام من الذهب، وأصغى إلى ما قصه عليه رجاله، وبات ينتظر عودة العبد الذي تخلف في القصر السحرى، ولكن هذا لم يعد حتى صباح اليوم التالي، ولما أرسل جستنيان بعض من صحبوه للبحث عنه حيث تركوه عادوا بعد قليل مؤكدين للإمبراطور أنهم لم يجدوا لذلك القصر أى أثر في الموضع الذي شاهدوه فيه، بل وجدوا ذلك الموضع قفرًا كعهدهم به من قبل ذلك الحادث العجيب.

ولم يسع الإمبراطور إلا أن ركع وأخذ يصلى بحرارة وإيمان، ثم قرر أن

يصوم بضعة أيام شكرًا للسماء التي أرسلت إليه المال لينجز بناء الكنيسة، وقال لمن حوله:

إن ذلك العبد لم يكن من سكان الأرض، بل كان رسولاً من السماء، تمت المعجزة على يده.

واعتقد الروم، وظلوا بضعة أجيال يعتقدون، أن المال الذي أنفقه الإمبراطور جستنيان–مشيد الكنيسة البديعة– جاءه مباشرة من السماء.

وكنيسة آيا صوفيا هي التي حولها العثمانيون بعد دخول مُحَمَّد الفاتح بيزنطة إلى مسجد، وظلوا محافظين على اسمها، فعرف المسجد باسم "جامع أيا صوفيا".

أما خصوم الإمبراطور، فإنهم كانوا يفسرون توفر المال بين يديه، ووجود تلك الثروة التي لا تنضب تحت تصرفه، بإدعاءات من نوع آخر، يروجونها سرًا، فتنتقل من فم إلى فم بين جدران البيوت، ولا ينادي بها الخطباء الثرثارون في حلبة "سوق الأخبار" أمام القصر المقدس.

كانوا يقولون:"أن جستنيان كان يتظاهر بالتقوى والورع، وصيانة أملاك الناس، وإحترام حقوق رعاياه، ولكنه في الواقع كان لصًا، لا يتورع عن النهب، والسلب، والسرقة، وكثيرًا ما عمد إلى التزوير في الوصايا التي يوصي بها كبار الأثرياء من رعاياه، بحيث يثبت فيها أنهم أوصوا له بكل ما تركوه من أموال، ثم يستولى على تركاتهم لنفسه، ويحرم منها الورثة الشرعيين.

وروى آخرون: أنه كان يضارب ويتاجر في سوق الحنطة،والحرير، والمواد الغذائية، فيحدد أسعارًامنخفضة، ويبتاع لحسابه كميات كبيرة منها، ثم يرفع الأسعار، ويبيع ما اشتراه بأغلى الأثمان.

وهناك من نسبوا إليه أنه كان يساوم كل طالب حاجة ولا ينجزها له إلا بعد أن يحصل منه في مقابل ذلك على ما يمكن الحصول عليه من المال، ومن هنا جمع مالاً كثيرًا من التجار، وأصحاب الملاهي، والحرف، وغيرهم.

وأكد كثيرون أن الإمبراطور لم يكن يتورع عن الإقدام على أية جريمة في سبيل الحصول على المال، وقد اغتيل في عهده كثيرون من الأمراء والكبراء في ظروف غامضة، ثم آلت ثرواتهم وممتلكاتهم إلى الخزانة الإمبراطورية بعد إتهام ورثتهم بذلك الاغتيال للتخلص منهم، والاستئثار بها من دونهم، وكذلك حكم على كثيرين من الأثرياء في عهده بالنفي ومصادرة أموالهم، لا لذنب اقترفوه؛ ولكن لأن الإمبراطور في حاجة إلى تلك الأموال.

وتطاولت ألسنة أولئك الخصوم فنالت من الإمبراطورة نفسها.. فقالوا عنها: أنها تحب المال، وتتواطأ مع أهلها وأصدقائها لسلب أموال الناس، كما أنها كانت تطلق أعوانها ليوافوها بأخبار العظماء الذين يكنزون الذهب والفضة، ثم تدبر المكايد بالاتفاق مع الإمبراطور زوجها للإيقاع بكل من هؤلاء طمعًا في الاستيلاء على ما جمعوه وكنزوه.

واتهم الإمبراطورة خصومها أيضًا بأنها طالما أجتذبت إليها أصحاب

الأموال، ورجال الأعمال بمساعدتهم على تنفيذ مشروعاتهم إلى أن تنجح هذه المشروعات وتدر أرباحا كبيرة، ثم تعمل على اتهامهم بالغش والجشع للاستيلاء على ثرواتهم بعد أن يلقى بهم في غياهب السجون.

والواقع أن بيت المال كان كثيرًا ما يصادر لحسابه كميات من البضائع، أو التحف، أو المواد الغذائية وغيرها، ولكن الشعب كان يعزو تلك المصادرات كلها إلى تدبير تيودورا، مهما تكن الأسباب القانونية لها، والعجيب أن عامة الشعب كانوا أكثر تصديقًا لما يروى عن الإمبراطورة تيودورا من هذا القبيل، برغم أنها كانت معروفة بالعطف على العامة والبر بالفقراء في الوقت الذي تبدو فيه متكبرة متعجرفة نهمة، شديدة الاعتداد بنفسها والتمسك بسلطتها إزاء الكبراء، وذوي النفوذ، وأصحاب المناصب العالية.

وهكذا استطاع أولئك الخصوم أن يلصقوا جميع أنواع التهم الشائنة بالإمبراطورة عدوة الأقوياء وصديقة الضعفاء، وصدق الجميع ما نسب إليها من مختلف ألوان الظلم، والاستبداد، والفساد، وفي مقدمة ذلك أنها لا تكاد تغضب على شخص ما لسبب من الأسباب مهما يكن تافهًا، حتى تأمر بإحضارة إلى القصر، حيث تسلط عليه من يكبلونه بالحديد، ثم يوجعونه ضربًا، وبعد ذلك تأمر بإرساله إلى المنفى في أطراف الإمبراطورية، أو بحبسه في أقبية القصر المظلمة حتى يلقى حتفه بعد أن يذاق ألوانًا من التعذيب، وهنا تأمر الإمبراطورة بوضع جثته في كيس خاص، ومعه أثقال من الحديد، ثم يلقي بالكيس وما فيه ليلاً في مياه البوسفور.. كما كانت أحيانًا تشتد في قسوتها على ضحية غضبها، فتأمر بإغراقه هكذا وهو على

قيد الحياة. وكانت هذه الأنباء تنتشر بسرعة بين الناس في الأسواق، والبيوت،والحقول، فإذامربعضهم أمام أسوار القصر المقدس، تهامسوا فيما بينهم، وجعل كل منهم يروي للآخرين ما سمعه عن السجون المظلمة في أقبية القصر السحيقة، حيث تحبس تيودورا –صديقة الشعب– خصومها وخصوم الشعب.

واشتط الخيال بخصوم الإمبراطورة، فاخترعوا من بنات أفكارهم مئات من آلات التعذيب زعموا أنها هي التي أعدت تصميمها بنفسها للتنكيل بضحاياها من الكبراء والأثرياء، فمنهم من يربط بالسلاسل بحيث يتعذر عليه أن يتحرك، ومنهم من تفقأ عيناه مبالغة في حرمانه من النور، وهناك آخرون يقضى عليهم بألا يأكلوا غير العظام المجردة من اللحم، فإذا قدر لأحدهم أن يبقى على قيد الحياة شهورا فى سجنه على هذه الحال فإنه غالبا لا ينجو من الإصابة بالعمى أو الجنون، وهنا تطلق تيودورا سراحه وتتركه يهيم على وجهه في الأسواق، وكان هذا هو التعليل المقبول لكثرة المجانين في بيزنطة، ولاسيما أن هؤلاء جميعا لم يكونوا يعرفون عن ماضيهم شيئا، أو على الأصح لم يكونوا يذكرون عنه شيئا، لأن السجن والتعذيب قد أفقداهم الذاكرة والعقل!

وتناولت الألسن حكاية ابن تيودورا الذي اختفى قبل أن تصبح عشيقة ولى العهد وزوجة الإمبراطور!.. فانتشرت إشاعة تقول: إن ذلك الابن عاد إلى القسطنطينية عقب وفاة أبيه بعد أن عرف منه أن أمه التي أنكرته ونبذته هي تيودورا إمبراطورة الروم وزوجة جستنيان، وعلى أثر صووله إلى العاصمة أرسل يطلب مقابلة الإمبراطورة، فتظاهرت بالسرور

لمقدمه وبالغت في الترحيب به، ولكنها كانت قد أوعزت إلى زبانيتها بأن يتربصوا لإقتناصه عقب انتهاء المقابلة، فانقضوا عليه وهو خارج من عندها، وقادوه فورًا إلى حيث لم يره أو يسمع عنه أحد أي خبر بعد ذلك.

تلك هي الأخبار المثيرة التي كان الناس يروجونها ويتناقلونها عن جستنيان، وزوجته العجيبة، ولكن هذه الأخبار لا تخلو من مبالغة، ودس، وكذب، أن فيها شيئًا من الحقيقة، ولكنها ليست كلها صحيحة.

إن بروكوبس، الذي نقل إلينا الكثير من الفضائح عن تيودورا، يقول عنها حرفيا، في كتابه "التاريخ السري" ما يلي: "كانت تيودورا امرأة غامضة، وإذا أرادت أن يبقى عمل من أعمالها سرًا مكتومًا، فإن ذلك كان ميسورًا لها، ولم يكن في وسع أحد أن يكشف الستار عن ذلك السر مهما تكن مهارته وشجاعته".

وبروكوبس هذا هو نفسه الذي نقل معظم الحوادث، والأساطير، والفضائح التي أشرنا إليها، فكيف عرف هو تلك الأسرار التي يدعي أن تيودورا كان بوسعها أن تخفيها من غير أن يتمكن أحد من كشف الستار عنها؟

ثم أن بروكوبس، بعد أن روى بعض تلك الفظائع التي ألصقها بالإمبراطورة، عاد فاعترف بأن الهرب من السجون، والأقبية، ومعتقلات المنفى التي تحدث عنها، كل ذلك لم يكن من الأمور المتعذرة وإن كان صعبًا، ثم أضاف إلى ذلك قوله: أن كثيرين من أولئك الذين قضوا في سجون تيودورا وأقبيتها مدة من الزمن –بسبب غضب الإمبراطورة

المؤقت– عادوا إلى استنشاق نسيم الحرية، وعادت إليهم أموالهم وأملاكهم.

وفي ذلك كله تناقض وتباين يحملنا على القول بأن الكثير مما روي عن تيودورا كان تحاملاً عليها، وافتراء من أعدائها وخصومها.

نعم، أن قصور الأباطرة ببيزنطة كانت تضم مسجونًا وأقبية، ولابد أن يحدث فيها ما يحدث في غيرها من القصور، في عصر كانت فيه الرحمة والشفقة من الفضائل المجهولة أو الممتهنة، وكان أولئك الحكام الذين يبدون من التعصب الديني أشده، هم في الواقع أبعد الناس عن العمل بتعاليم المسيح ودينه، وما نصت عليه تلك التعاليم من محبة ووئام.

ولا يستغرب أن تكون تيودورا قد أنتقمت من أشخاص ناصبوها، أو ناصبتهم العداء لسبب من الأسباب، ولا أن تكون قد سجنتهم، وعذبتهم، أو قتلتهم، فالواقع أنها كانت على جانب كبير من الحقد، ولم تكن تنسى الإساءة قط.. وقد عاشت حتى آخر حياتها وهي تذكر موقف "الخضر" منها ومن أهلها، وكيف احتقروها، وامتهنوها، وحاولوا حرمانها من أسباب الارتزاق.

كذلك كانت تيودورا جبارة في ممارسة سلطتها الإمبراطورية، فلم تكن تتردد في الالتجاء إلى القسوة والبطش للتخلص من أعدائها الذين أرادوا –أو حاولوا– أن ينقصوا من سلطتها، أو بسلبوها شيئا منها.

وكانت الغاية عندها تبرر الوسيلة، وعلى هذا لم تتورع عن استخدام أي سلاح ضد أعدائها، ولم تتردد في اتخاذ أية وسيلة مشروعة، أو غير

مشروعة في سبيل الاحتفاظ بسلطتها المطلقة، فكذبت، ونافقت، وغدرت غير مرة، ولكن هذه المرأة التي حكمت عشرين سنة، كانت –باعتراف بروكوبس نفسه– كثيرًا ما تفتح قلبها للرحمة والشفقة، كما كانت تحافظ على وفائها للذين خدموها وأخلصوا لها، وتغفر لأعدائها إذا ما تابوا وطلبوا منها الصفح عما بدر منهم.

وهناك حقيقة لا يمكن نكرانها، وهي أن أشد خصوم تيودورا عداء لها وسخطًا عليها، لم يُثقتلوا ولم يُسجنوا، بل حُكم عليهم بالنفي، فاكتفت الإمبراطورة بأن تبعهدهم عن العاصمة لكي تأمن شرهم، وفرضت عليهم رقابة شديدة في أطراف المملكة حيث كان منفاهم.

ولا شك أيضًا في أن تيودورا قد وضعت ثقتها، في وقت من الأوقات، في أشخاص كانوا من قبل أعداء لها وكانت هي تكرههم وتخشاهم، فالقول إذن بأنها كانت تلاحق خصومها وتطاردهم حتى تقضى عليهم، قول لا تؤيده الحوادث نفسها، ولا يستغرب من إنسان حقود أن يصفح عمن كان يحقد عليه، وأن ظل يذكر الإساءة التي لحقت به من أجله، أو على يده، أما أبنها فليس هناك ما يثبت أنها تخلصت منه بالقتل، وقد يكون هناك سر لم يرفع عنه النقاب أحد إلى اليوم، ولا يستبعد أن تكون تيودورا قد نفحت ذلك الابن مبلغًا من المال على شرط أن يذهب إلى مكان قصي، ولا يظهر ثانية في العاصمة، ولم يكن في وسع الابن أن يقاوم، أو يتمرد وأمه على ما هي عليه من جبروت وسلطان!

والذي يحمل على الشك فيما رواه الرواة عن قتل ذلك الابن، أن

تيودورا كان لها ابنة كما أسلفنا، وأن تلك الفتاة عاشت في بيزنطة وفي كنف أمها، وكانت تيودورا تغدق عليها النعم، ثم فتحت لحفيدها أثاناسيوس –ابن تلك البنت غير الشرعية– طريق النجاح والثروة، ورعته بعنايتها، وسألت عنه ساعة موتها.

ولا نظن أن اهتمام عامة الشعب بأمثال تلك التفاصيل التي رواها بروكوبس كان بالغًا ذلك المبلغ الذي أدّعاه، والشعب عادة يبحث عن الأسباب في غير موضعها، إنه كان يرى نفوذ تيودورا على زوجها، وسلطانها المطلق على الإمبراطور الذي يفعل ما تريد، فاعتقد الناس أن هناك تدخلا من الملائكة، أو من الأبالسة، أو من العفاريت، في حين أنه كان في وسعهم أن يفسروا هذا السلطان وذلك النفوذ بأن زوجة الإمبراطور تمتاز بإرادة أقوى من إرادة زوجها، وأن شخصيتها تطغى على شخصيته.

فأقرب إلى التصديق أذن أن يقال أن طغيان تيودورا على جستنيان كان أمرًا طبيعيًا ولا حاجة إلى أن نعلله بأسباب خارقة للطبيعة.

ولكن الشعب كالطفل الكبير، والأساطير والخرافات تؤثر فيه، وتغرى مخيلته أكثر مما تغريه الوقائع الملموسة، ومن هنا كان شعب بيزنطة –برغم حبه لتيودورا– يصدق بسهولة كل ما يشاع عنها، ثم انتهى به الأمر إلى أن اعتقد أنها على صلة بالشياطين، وأن الشياطين كانت تعاشرها في صباها، وتطرد عشاقها وتحل محلهم، بل اعتقد أنها حين تسنمت العرش، كانت واسطة تعارف بين زوجها وسكان الجحيم.

ولا يمكن تصديق الافتراءات التي حاول بعضهم إلصاقها بتيودورا، من حيث سوء سيرتها بعد تسنم العرش. فلو أن هذا كان صحيحًا؛ لتناولته الألسنة بالنقد والتجريح، ولما بقى كاتب، أو مؤرخ، أو راهب لم يذكره، ويسجله، وينقله إلينا خلال الأجيال التالية.

ولا يغرب عن البال أن فضائح النساء في بيزنطة، كانت ركن الأحاديث ومحورها في المجتمعات، والأندية، والأسواق على السواء، ولم تُسلِم امرأة واحدة–كبيرة كانت أم صغيرة– من ألسنة الناس، فكيف سلمت منها تيودورا الإمبراطورة، وهي التي عرفها الشعب بأسره ورآها ممثلة، وراقصة ومهرجة، في الملعب؟

ولنختم حديثنا عن ثرثرة العاصمة البيزنطية بذكر الاعتقاد الذي كان شائعًا في المدينة عن تمثال "الزهرة" –أي الربة فينوس– على ساحل القرن الذهبي:

كان ذلك التمثال بقية من آثار العهد الوثني، وكان الناس يعتقدون أن صاحبته فينوس الواقفة عارية على قمة عمود مرتفع، تشرف على مياه القرن الذهبي، ترعى بحمايتها بيوت الملذات المحرمة، ولا تتردد في أداء أجل خدمة يمكن أن تؤديها ربة من الربات لرجل محافظ يغار على سمعته.

فإذا ما شك زوج في وفاء زوجته له، واتهمها، أو مال إلى اتهامها بالخيانة، فإنه يأخذ بيدها ويقول لها: "هيا بنا إلى تمثال فينوس"

والمرأة الشريفة وحدها دون سواها هي التي كانت ترضى بأن تقوم بالتجربة، وتذهب مع زوجها إلى التمثال الرهيب؛ ذلك لأن المدينة كلها

كان يسودها الاعتقاد حينذاك بأن كل امرأة مذنبة تمر في ظلال التمثال لابد أن تسقط عنها ثيابها فتبدو عارية مثلما يبدو تمثال فينوس.

أما إذا كانت الزوجة شريفة غير مذنبة، فإنها تمر بسلام، ولا تقدم الربة على تجريدها من ثيابها، وبذلك لا يسع الزوج إلا أن يؤمن بأنها باقية على وفائها له.

ويرون أن حادثًا مزعجًا وقع من هذا القبيل لابنة أخت تيودورا، فقد ذهبت تلك المرأة إلى القرن الذهبي لزيارة إحدى صديقاتها، ففاجأها المطر، واضطرت إلى سلوك طريق آخر، فقادتها قدماها إلى التمثال المعهود، وإذا بها تجد نفسها مجردة من الثياب، عارية في وسط الطريق، فغضبت، وقصت ما حدث لها على خالتها الإمبراطورة، فأمرت تيودورا بأن ينزل التمثال عن قاعدته ويحطم، وهكذا أنقذت الإمبراطورة نساء الدولة الخائنات من ذلك الكابوس.

وقال الناس همسًا: "إذا كانت تيودورا قد حطمت التمثال؛ فذلك لأنها خائفة من أن يعمد زوجها الإمبراطور إلى أخذها بيدها قائلا: "هيا بنا إلى تمثال فينوس".

والحقيقة يمكن تفسيرها الآن بأن المرأة التي مرت أمام التمثال قد فوجئت برياح قوية هبت عليها، كما فوجئت بالمطر، وأن تلك الرياح رفعت ثوبها أو أسقطته، ولكنها جارت الاعتقاد السائد، ونسبت إلى التمثال الأصم تهمة تجريدها من ثيابها، فعمدت إلى التخلص منه بمساعدة خالتها.

هذا إلى أن تيودورا تعد في مقدمة شهيرات النساء اللائي كتب عنهن المؤرخون والرواة مجلدات لا عداد لها. وقد ثبت أن واحدًا ممن كتبوا عنها، لم يذكر أنها بعد جلوسها على العرش كانت امرأة منحلة الخلق سيئة السيرة كما كانت في عهدها الأول، ونحن نميل إلى الاعتقاد بأنها كانت زوجة صالحة وفيَّة للإمبراطور الذي وضع فيها ثقته، وأحبها حبا جعله ينسى نفسه من أجلها، ويضحي بسلطته في سبيل سلطتها.

تيودورا الزوجة

كان المؤلف المسرحي الفرنسي "فكتوريان ساردو" من الكُتاب الذين اتخذوا حياة تيودورا موضوعًا لكتاباتهم، وقد وضع عنها مسرحية "تيودورا" وأظهرها فيها بمظهر امرأة مستهترة، سيئة السلوك، وقد ساعد ذلك على ترسيخ الاعتقاد لدى بعض الناس بصحة ما قيل وأذيع عن الممثلة الحسناء التي صارت إمبراطورة، وباتوا ينظرون إليها عن بعد خلال حقبات التاريخ، نظرهم إلى غانية ظلت بعد اعتلائها العرش، منغمسة في سيرتها الأولى غارقة إلى ما فوق رأسها في أحضان الرذيلة.

ونحن لا نرغب هنا في الدفاع عن الإمبراطورة وإظهارها أمام القراء في مسوح القديسين، فإن التأكد من أنها تحولت إلى امرأة صالحة ليس من الأمور السهلة، ولا يهمنا نحن أن تكون تيودورا قد تابت من ذنوبها أم لا. ففي شبابها، كانت تيودورا منغمسة في الملذات المحرمة بلا وجل ولا حياء، وإذا كانت، فيما بعد، قد استمرت في غيها وعاشت بين جدران القصر الإمبراطوري كما كانت تعيش بين جدران المواخير، فهذا لا يضيرنا نحن بل

يضير زوجها الإمبراطور جستنيان.

غير أن الوقائع هي الوقائع، والدلائل هي الدلائل، وإذا فحصناها ووزناها، فإنها تنطق بما في مصلحة تيودورا لا ضدها، فلنفحصها إذن ولنزنها بميزان الإنصاف وعدم التحيز.

ومن بين هذه الوقائع الملموسة والدلائل الجلية، أنه ليس هناك كاتب مؤرخ، وأحد من معاصريها، ولا ممن عاشوا في الجيلين التاليين، سطر كلمة واحدة يستفاد منها أن الإمبراطورة ظلت بعد اعتلاء العرشتلك المرأة الفاسقة الفاجرة، التب عرفها البيزنطيون في ملعب عاصمتهم، مع أن أولئك الكتاب المؤرخين كثيرون.

وقد نقلوا إلينا أشياء كثيرة عن تيودورا، وعددوا لنا عيوبها ونقائصها، فقالوا:

"أنها كانت متكبرة قاسية جشعة، متعصبة ماكرة، ولم يكن هناك ما يمنعهم من أن يقولوا أيضًا: أنها كانت زوجة سيئة السلوك"

وهؤلاء المؤرخون الذين نشير إليهم، وفي مقدمتهم بروكوبس، قد سردوا لنا بالتفصيل جمع ما عرفوه، أو سمعوه، أو ابتكروه من مخيلتهم عن تيودورا الراقصة الممثلة، وعن الإمبراطورة الطاغية، ولو كانت زوجة جستنيان قد خانته أو لطخت اسمه بالعار، لما سكت هؤلاء المؤرخون عن هذا، ولرووه لنا بالتفصيل كما فعلوا عن الشطر الأول من حياة تيودورا، وما داموا قد لزموا الصمت، ولم يقولوا شيئا في هذا الصدد، فمعنى ذلك أنه لم يكن هناك شيئًا يقال.

إن كل ما أشار إليه بعضهم، في كتب التاريخ التي يعتمد عليها: هو أن الإمبراطورة كانت صديقة حميمة لثلاثة من الرجال، غمرتهم بعطفها ونعمها. فمن هم أولئك الثلاثة؟. وهل كانوا أصدقاء قط أم كانوا عشاقًا؟ كان هؤلاء الثلاثة هم: تيودوسيوس، وبرسيماس، واريوبنداس. وأولهم كان عشيق أنطونينا، زوجة القائد العظيم بليزيروس، ووصيفة الإمبراطورة المحببة المقربة. وقد استمرت علاقة تيودوسيوس بالزوجة الخائنة بضعة أعوام، فقد لحق بها إلى حيث كانت تذهب مع زوجها القائد، وهو على رأس الجيش الرومي: ذهب معها إلى أفريقيا، وإلى جزيرة صقلية، وإلى إيطاليا، من غير أن يفتح بليزيروس عينيه ويدرك الحقيقة، رغم محاولات أصدقائه العديدة لتنبيهه وتحذيره، فإن الرجل كان عاشقًا متيمًا، والزوج العاشق لا يرى في زوجته عيبًا مهما يكن العيب ظاهرًا، وهو أيضًا ضعيف الإرادة برغم صرامته، وشدته، وقسوته كجندي وقائد.

ومرت عشرة أعوام، شعر الزوج في نهايتها بأن هناك شيئًا يمس كرامته، وأدرك الحقيقة المرة المؤلمة، فعول على وضع حد لتلك الحالة، وحبس زوجته في دارها، ونادى "فوتيوس" ابنها من زوجها الأول، وعهد إليه بأن يقتص من أمه، ويعاقبها على ما فعلت.

ولم يتردد الشاب في تنفيذ ما كلفه به زوج أمه، وكان تيودوسيوس قد فر من وجهه ولجأ إلى حرم كنيسة على أمل ألا يجرؤ أحد على اللحاق به إليها، ولكن فوتيوس لم يحترم قدسية المكان، بل اقتحم الكنيسة، وقبض على عشيق أمه، وأرسله مكبلاً بالحديد إلى قلعة منعزلة في جبال قيليقية بسورية.

وتم كل شيء بسرعة عجيبة وحذر شديد، حتى أن الناس ظلوا مدة من الزمن يجهلون مصير تيودوسيوس، إلى أن تدخلت تيودورا في المسألة.. وقيل أنها كانت تعطف على تلك العلاقة القائمة بين وصيفتها وعشيقها تيودوسيوس، وأنها كانت تحمي الحبيبين أرضاء لأنطونينا، فإن رضاء وصيفتها كان من شأنه أن يجعل زوجها بليزيروس دائمًا تحت نفوذ الإمبراطورة، والإمبراطورة في حاجة إلى تأييد قواد الجيش، وهكذا رأت تيودورا أن تكتسب الزوج، بأن تساعد زوجته على خيانته؛ لترضيها وتؤثر بواسطتها فيه.

وحدث ذات مرة أن لاكت الألسنة حكاية أنطونينا وتيودوسيوس، فخشى العشيق على نفسه، وابتعد عن العاصمة، ولكن تيودورا نفسها أرسلت في طلبه، وطمأنته على حياته، وحملته على البقاء في بيزنطة بجانب صديقتها ووصيفتها أنطونينا العاشقة.

ولما بلغها ما حدث لأنطونينا، وكيف حبسها زوجها بليزيروس في بيتها، وعهد إلى ابنها في معاقبتها، كما بلغها أن فوتيوس أرسل العاشق إلى قلعة في قيليقية، أسرعت إلى التدخل، ودعت بليزيروس للعودة إلى بيزنطة مع زوجته، وأرغمته على أن يصطلح مع أنطونينا وينسى ما فات، وهكذا فعل القائد الضعيف الإرادة ما طلبته منه الإمبراطورة.

وبعد أن تم الصلح بين الزوج والزوجة، بفضل تيودورا، أرسلت الإمبراطورة في طلب تيودوسيوس نفسه، وجاءت به سرًا إلى القسطنطينية، وأدخلته القصر ليلا، وخبأته في الجناح المعد، ثم نادت وصيفتها أنطونينا–

الزوجة الخائنة– وقالت لها:

يا عزيزتى الحبيبة، لقد وقع بين يدي كنز ثمين، جوهرة لم تقع على مثلها يد إنسان.. فإذا أردت، فأننى أجيئك بالجوهرة لكي تمتعي بها النظر.

ولما رأت حماسة أنطونينا لرؤية الجوهرة، أخرجت تيودوسيوس من مخبئه، وألقته بين أحضان عشيقته، التي طارت من الفرح، وجعلت تقبل يدها مرددة:

أنت سيدتي، أنت ملاكي، أنت منقذتي.

واحتفظت تيودورا بالعشيق داخل القصر، حيث أعدت له ولعشيقته جناحًا خاصًا، وعينت لهما الخدم والخصيان، وفكرت في وقت من الأوقات أن ترفع تيودوسيوس إلى مصاف القواد وتضعه على رأس فرقه من الجيش، ولكنه مات قبل أن تحقق تيودورا وعدها.

هذه قصة أنطونينا وتيودوسيوس كما رواها بروكوبس، ولا شيء في روايته هذه يدل على أن الإمبراطورة انتزعت من الوصيفة عشيقها، ولو كانت قد فعلت ذلك، لما سكت بروكوبس، ولا اتخذ عملها هذا حجة للتشهير بها كعادته.

وقال آخرون أن تيودورا كانت عشيقة "برسيماس" وهو شاب سوري بدأ يجمع ثروته الطائلة بالاتجار بالفضة والذهب. ولفت إلى نفسه الأنظار بالمضاربات الجريئة التي كان يقدم عليهافي غير مبالاة بالصدق، أو الأمانة.

ثم أصبح برسيماس في خدمة الحكومة بعد أن صار على جانب عظيم

من الثراء، فاسترعى نشاطه انتباه الإمبراطورة، وسرعان ما قربته منها، وجعلت تستخدمه في قضاء مآربها السياسية، ومهدت له سبل الارتقاء، فأصبح رئيسًا للمحكمة العليا.. ودهش الناس لهذا الصعود السريع المفاجئ، فراحوا يفسرونه بما يوحي به الخيال، فقال "الفلاسفة" في "سوق الأخبار": أن برسيماس يتعاطى السحر، وأنه يضع في كأس الإمبراطورة شرابًا تعده له الشياطين، وهذا هو سر نفوذه عليها وعطفها عليه.

والحقيقة أن برسيماس لم يكن في حاجة إلى شراب سحري، ولا إلى مساعدة الشياطين لكي يتقدم وينجح، فهو ذكي جريء. وقد انتقل إلى منصب وزير المالية، فعرف كيف يحصل على المال كلما كان الإمبراطور، أو الإمبراطورة في حاجة إليه؟ وفي هذا ما يكفي لاكتساب ثقة جستنيان وتيودورا.

وكان الرجل قاسيًا في معاملة الناس، ولم يحجم عن الدخول في مضاربات، ومساومات أحدثت في النهاية أمتعاضًا عامًا، فاضطر جستنيان إلى إعفائه من منصبه، برغم قدرته على إحضار المال وقت اللزوم.

وحاولت تيودورا أن تثني زوجها عن عزمه، ولكنها فشلت، غير أنها ظلت تشمل برسيماس بحمايتها، فكان هذا عزاء له عما أصابه من نقمة الإمبراطور. وليس هناك ما يدل على أن علاقة غرامية قامت بين تيودورا وبرسيماس، وقد قال بروكوبس نفسه: "أن تيودورا أحبت برسيماس لبراعته في الحصول على المال، ولخبرته في الأعمال السحرية، وهي الأعمال التي كانت الإمبراطورة تميل إليها وتمارسها".

وإذن.. لم تحبه الإمبراطورة؛ لأنها أتخذته عشيقا لها، بل أحبته كخادم أمين تثق به وتستغل مواهبه.

وبعد موت تيودورا، عاد برسيماس إلى القصر وشغل مرة أخرى منصب مدير بيت المال، وظل حائزًا بقية حياته على ثقة الإمبراطور.

وكتب قَصاص يدعى "ريلاس" في القرن الثاني عشر قصة عن رجل يدعى "برسيماس" قال عنه:"أنه كان من أخصاء الإمبراطورة تيودورا"، وروى في قصته الرواية الآتية:

"عرف برسيماس وهو في حمص بسورية، ساحرة مصرية جاءت من الإسكندرية تحمل معها لوحات عليها رسوم فرعونية لا يعرف غيرها معناها، ولكنها وقعت في غرام برسيماس، فاصطحبها معه إلى بيزنطة، حيث فكت له رموز تلك اللوحات، فأصبح يملك قوة خارقة تزيل من سبيله العراقيل، وتمهد الصعاب، وتجعل أقوى الناس شكيمة يقف أمامه مستسلمًا طائعًا، وبقوة تلك الطلاسم الفرعونية، توصل برسيماس إلى أعلى المناصب، وملك قياد الإمبراطورة والإمبراطور، ولكن الساحرة التي كانت تحبه داخلتها الغيرة من تيودورا الجميلة، فلجأت إلى استخدام سحرها للتفريق بين عشيقها والإمبراطورة، فنجحت"

ولا يعرف من أين أتى ذلك القصاص بهذه الرواية عن الساحرة المصرية، وأغلب الظن أنه نقلها عن مخطوط قديم، أو ابتكرها من مخيلته، شأنه في ذلك شأن معظم القصاصين.

أما "أريو بندوس" الذي قيل أيضًا أنه كان عشيق الإمبراطورة، فهو

من الشعوب التي كان الروم يسمونها "برابرة"، وقد عطفت عليه تيودورا، وقربته إليها، وعينته في حرسها؛ لأنه كان قويًا جميلاً مفتول العضلات، وتهامس الناس فيما بينهم: "أهو حارس، أم عشيق؟".

وبلغت أخبار هذا التهامس مسامع تيودورا، فسارعت إلى إبعاد الشاب، فأرسلته إلى إحدى الحاميات البعيدة، ولو كانت تحبه كعشيق لما منعها شيء من أخفائه في قصرها من غير أن تصل أخباره إلى الخارج، وإذا كانت قد أبعدته، فإن هذا دليل على أنها أرادت أن تكذب الإشاعات وتصون سمعتها.

والذي نعتقده، أن تيودورا صانت سمعتها فعلاً، وكبحت جماح نفسها كامرأة، منذ أصبحت إمبراطورة، وذلك لبضعة أسباب:

فقد اعتلت العرش وهي في نحو الثلاثين، والمرأة في هذه السن– خصوصا في الشرق– تكون قد فقدت كثيرًا من روعة الشباب، فضلا عن أن تيودورا، في الوقت الذي قيل فيه أنها أتخذت لنفسها عشاقًا–وهم الذين ذكرناهم– كانت قد جاوزت الخامسة والأربعين.

يضاف إلى هذا أن تيودورا الذكية النابهة، أدركت أن منصب الإمبراطورة، وعرش بيزنطة يستحقان أن تضحي في سبيلهما بميولها العاطفية، وإذا كانت قد أخطأت فقد يكون ذلك في داخل القصر، وبصورة خفية سرية، لا يمكن أن يفطن إليها الناس من الخارج، ويتحققوا منها، ويستطيعوا إثباتها. ولماذا لا نتصور تيودورا في صورة امرأة كانت فاسقة فاجرة، ثم ضحك لها الحظ فجلست على العرش، ومنذ تلك

اللحظة شعرت بالاشمئزاز من حياتها السابقة، وصممت فعلا على إسدال ستار بين ماضيها وحاضرها؟

لقد أثبتت أكثر من مرة، وهي إمبراطورة، أنها تحمي الأزواج، وترغب في صيانة حرمة الزواج، ولا عبرة بحادثي تيودوسيوس وأنطونينا، حيث ضعفت تيودورا أمام وصيفتها، وأرادت أن ترضيها بإحضار العشيق وإلقائه بين أحضانها، فهناك مئات من الحوادث الأخرى أبدت فيها الإمبراطورة غيرتها على سمعة الزواج ورغبتها في أن يحافظ الناس على الرابطة التي جمعت بينهم، فجعلت من الرجل رفيق المرأة، ومن المرأة رفيقة الرجل في الحياة.

ومن الفضائل التي لا يمكن إنكارها، أن تيودورا عملت وهي إمبراطورة على إنقاذ النساء الساقطات من هوة العار، وأعادتهن إلى الحياة الشريفة، ثم حملتهن على الزواج لكي يجدن فيه الراحة والاستقرار، فهي تساعد المرأة على النهوض لا على السقوط، أليس في ذلك دليل على أنها كانت تأسف؛ لأنه لم يوجد إنسان ينقذها من حياة الفسق والفجور وهي شابة يافعة.

ثم أن تيودورا كانت متدينة، هذا مالا شك فيه، وأعمالها التي تثبت تدينها –وهي إمبراطورة– لا تعد ولا تحصى، ومهما قيل في أعمال الناس، فإنه لا يعقل ولا يمكن أن يتصور المحقق المدقق، أن إنسانًا تقيًا ورعًا مؤمنًا يحيا حياة مزدوجة، شطر منها نظيف شريف، وشطر منها ملطخ موبوء.

ثورة ضد العرش

كانت القسطنطينية قد سادها القلق والاضطراب؛ لتفاقم الخلاف بين فريقي "الخضر"، و"الزرق". وبلغ الخطر ذروته في شهر يناير سنة ٥٣٢م، فباتت العاصمة مهددة بانفجار هائل رهيب.

وكانت الإمبراطورة تيودورا تميل إلى الزرق وتعطف عليهم، نتيجة لحقدها على الخضر، ورغبتها في الانتقام منهم لإساءتهم السابقة إليها قبل أن تعتلي العرش. وعلى هذا تعودت التستر على الزرق وحمايتهم كلما أقدموا على عمل غير مشروع أو جريمة يعاقب عليها القانون.

وعبثًا حاول جستنيان أن يثنيها عن تحزبها، وكان يقول لها كلما أقدمت على شيء من هذا القبيل:

ألا تخشين خروج الخضر عن جادة الصواب، وإحداث فتنة في العاصمة؟

فكانت تجيب ضاحكة: "فليحاول الخضر إحداث الفتنة إن استطاعوا!.. إن الزرق لهم بالمرصاد، وهم خليقون أن يخمدوا أنفاسهم فضلاً عن فتنتهم التي تخشاها"، وحينئذ يسكت الإمبراطور مقتنعًا، ثم يجاري زوجته في تماديها، ومبالغتها في تأييد أصدقائها.

على أنه كان في بعض الأحيان يضيق بحماقات الزرق واستهتارهم، فيأمر باتخاذ إجراءات عنيفة لردهم وكبح جماحهم، حتى لا يتمادوا في غيهم وغرورهم.. ولكن الإمبراطورة تيودورا سرعان ما كانت تتدخل في

الأمر، فتثور غاضبة، وتصارح زوجها وهي ترغي وتزيد بأنها قد تتسامح في أي شيء إلا أن يكون فيه ما يمس الزرق من قريب أو بعيد.

وكان الزرق يعرفون هذا، ويدركون لماذا تتشبث الإمبراطورة بحمايتهم، ومحاباتهم على حساب الخضر. فيزيدهم هذا تماديًا، وأمعانًا في مفاسدهم واعتداءاتهم على خصومهم.. وإذا حدث أن غضبوا يوما لتصرف في غير مصلحتهم من أحد موظفي الدولة، أو ضباط الجيش، أو أحد الحكام والمحافظين، فما أسرع ما كانوا يجمعون جموعهم، ويزحفون على القصر المقدس، حيث يتظاهرون في ساحته صاخبين، مطالبين الإمبراطور بمعاقبة خصمهم بالطرد.. وهنا لا يسع الإمبراطور إلا أن يجيب طلبهم حتى لا تغضب زوجته الحبيبة الحسناء!. وما كان يحدث في العاصمة كان يحدث أيضًا في الأقاليم، والولايات، والمدن النائية.

وقع ذات يوم شجار في انطاكية، اشترك فيه الزرق، فقبض حاكم المدينة على فريق منهم، وضربهم بالسياط في أحد الميادين العامة، وكان يتوقع أن يهنئه الإمبراطور على حزمه وشدته في معاقبة المذنبين، ولكن الأمر جاء على نقيض ذلك؛ إذ أمر الإمبراطور بالقبض عليه، وبأن يجلد بالسياط في الميدان نفسه الذي جلد فيه أولئك الزرق المشاغبين.

ومرة أخرى، هاجم جماعة من الزرق حاكم قيليقية، وسلبوه نقوده بعد أن شهروا أسلحتهم في وجهه، فأرسل في اليوم التالي قوة اعتقلت المعتدين، وأعدم اثنين منهم شنقًا في عاصمة الولاية، وما بلغ الخبر تيودورا، حتى أمرت بالقبض على ذلك الحاكم، وبأن يصلب في المكان الذي أعدم فيه

الشقيين.. وهكذا شنق المسكين؛ لأنه حرص على صيانة الأمن وتنفيذ القانون.

وفي القسطنطينية، كانت حوادث الاغتيال تقع في وضح النهار، وكان الزرق يهاجمون خصومهم بالخناجر والسيوف على مرأى ومسمع من الإمبراطور نفسه.

وكثيرًا ما حدث أن ضرب الزرق عرض الحائط برأي الإمبراطور، فلم ينتظروا حتى يبت في شكواهم ضد أحد خصومهم، بل عمدوا إلى التربص لهذا الخصم، ثم الانتقام منه بأنفسهم لأنفسهم،بأن أنهالوا عليه بالضرب حتى مات.. وقد يكون من موظفي القصر المقربين من الإمبراطور. وقد ينفذون فيه حكمهم الرهيب وهو خارج من القصر.

ولم يكن أحد من رجال الشرطة ليجرؤ على التدخل لتأديب أولئك الأشرار، أو منعهم من قتل خصومهم، ذلك لأن الزرق كانوا لا يترددون في إشهار السلاح في وجوه رجال الشرطة أنفسهم، ومقاومتهم بالقوة، ثم رفع شكواهم بعد ذلك إلى الإمبراطور؛ مدعين أن رجال الشرطة هم المعتدون.

وزاد في خطورة الحالة أن الخضر حين أدركوا تحيز البلاط إلى خصومهم الزرق، وآلمهم أن تجاهر الإمبراطورة بحمايتها لهؤلاء، عمدوا إلى إعطاء معارضتهم صبغة سياسية. وكان كثيرون منهم ما زالوا أوفياء لذكرى الإمبراطور "أنستاسيوس" الذي كان يميل إليهم ويحميهم، وهو آخر إمبراطور من الأسرة السابقة، التي حلت أسرة جستنيان محلها بعد موته،

فأخذ زعماء الخضر يتصلون خفية بالأميرين: "هيباتيوس، وبومبيوس"–ابني أخي انستاسيوس ووارثيه الوحيدين– ويحرضونهما على العصيان والتمرد. وما زالوا بهما حتى اقنعاهما بالخروج من عزلتهما، وتزعم حزب سياسي تألف من الخضر وغيرهم من الساخطين على الحكم الراهن في العاصمة والأقاليم.

وقلقت الحكومة، وأدركت أن العاصمة مهددة بثورة جارفة، يضرم الخضر نيرانها انتقامًا لأنفسهم من الزرق ومن الأسرة المالكة. واضطر الإمبراطور إلى مضاعفة الحراسة، ودعا إلى العاصمة قوات من الجيش كانت مرابطة في الأقاليم، وأصبح الناس يرقبون بين ساعة وأخرى أن تنبعث الشرارة التي يندلع منها اللهيب.

ومما ساعد على تغذية روح التذكر وانتشار الفوضى، أن الناس كانوا يشْكون من الشدة التي يعاملهم بها بعض كبار الموظفين وذوى المناصب الرفيعة. وفي مقدمة هؤلاء المغضوب عليهم من الشعب رجلان من نوابغ ذلك العصر: "تريبونياتس" المشرف على الشئونالمالية، و"جان كابادوكي" المشرف على شئونالعدل والمحاكم.

كان جان من كبار رجال القانون، وهو من هذه الناحية مفخرة من مفاخر الإنسانية، هذا ما لا شك فيه، ولكنه كان جشعًا لا رادع له من ضميره، ففي سبيل المال كان جان كابادوكي يتاجر بكل شيء، بما في ذلك ضميره، وكان يسخر القضاة، والمحاكم، والقوانين لخدمة مآربه وأطماعه، وقد ثبت أنه زور أوراقًا رسمية، ومسخ القوانين، وأخفى وثائق هامة، إرضاء

لأشخاص دفعوا له في مقابل ذلك رشوة باهظة، وهكذا كان جان كابادوكي نموذجا للقاضي النابغة في فهم القانون، ولكنه يسخر نبوغه في مخالفة ذلك القانون.

أما تريبونياتس، فكان إداريًا حازمًا بارعًا، يعد هو الآخر من مفاخر عصره في هذا الميدان، ولكنه كان مثل زميله شديد الجشع، يحب المال أولاً وآخرًا، ولم يكن يتردد في ارتكاب عمل ظالم، أو مخالف للقانون، ما دام في ذلك حصوله على المال.

وكثيرًا ما كان هذا الطاغية يرسل في طلب المال من الأغنياء بلا مبرر لهذا الطلب، فإذا امتنعوا بحجة أن المال غير متوفر لديهم، فسرعان ما يقبض عليهمً ويعذبهم حتى يدفعوا المال المطلوب. وبلغ به الأمر أنه عذب أناسًا حتى الموت، وكان يقول لزبانيته جباة الضرائب والمكوس:

أريد منكم مالا أكثر مما يحق لكم أن تأخذوا من الناس، وأننى أطلق أيديكم في عمل ما تريدون لهذا الغرض، ولن أحاسبكم على شيء تقدمون عليه، مهما تكن الشكايات التيترفع ضدكم، على شرط أن تعودوا إليَّ، ومعكم المال الذي أريد.

وكان الإمبراطور راضيًا عن هذين الرجلين القاسيين؛ لأن ما كان يهمه قبل كل شيء هو أن تسير الأعمال الإدارية سيرًا حسنًا، وأن تظل خزائن القصر عامرة بالمال، فضلا عن أنه كان يعلم أن كابادوكي، وتريبونياتس لا يأخذان لنفسيهما غير القليل، ويعطيانه الكثير.

غير أن رضاء الإمبراطور عنهما لم يكن كافيا لحمل الشعب نفسه

على الرضا عنهما، ففى الوقت الذي كان فيه الإمبراطور يؤنب زوجته تيودورا على حمايتها للزرق وإطلاقها أيديهم في التنكيل بخصومهم الخضر، كانت هي الأخرى بدورها تؤنبه على إطلاقه أيدي عماله للتنكيل بدافعي الضرائب، وأصحاب الثروات، والأملاك!

وهكذا انتشر الامتعاض وتحول إلى تذمر، فإلى غضب، ثم ثورة.. وقد عرفت تلك الحركة باسم لازمها في خلال التاريخ: "فتنة نيكاس". وبدأت هذه الفتنة داخل الملعب، ثم عمت المدينة الضخمة وأوشكت أن تؤدى بعرش جستنيان، وتؤدى إلى خراب المملكة بأسرها.

كان ذلك في يوم الأحد ١١من يناير سنة ٥٣٢م، وكان الملعب يغص بالمتفرجين الذين هرعوا إليه لمشاهدة سباق الخيل، والمراهنة بأموالهم جريا على عادتهم. وكان الإمبراطور جستنيان جالسًافي مقصورته، وحوله رجال الحاشية، أما الإمبراطورة تيودورا، فكانت جالسة بين وصيفاتها خلف ستار شفاف، في شرفة كنيسة القديس اسطفانوس المطلة على الملعب، ولهذه الشرفة نوافذ يسدل عليها ستار، أو ترفع أمامها شبكة خشبية؛ لأن البلاط البيزنطي كان يحرص على ألا تظهر الإمبراطورة ونساء القصر أمام الجمهور إلا في ظروف خاصة، وأوقات معينة. وكان المهور في ذلك اليوم مضطربًا هائجًا، فقد حدثت في الأيام الأخيرة سلسلة من الجرائم في المدينة قُتل فيها بعض الأشخاص معظمهم من فئة الخضر، وكان الخضر قد رفعوا إلى الإمبراطور شكاية ضد ضابط من ضباط القصر يدعى "كالوبوديوس" اتهموه بأنه متحيز إلى الزرق ضدهم، وصيغت الشكاية في كلام جاف عنيف.

في ذلك الجو المضطرب بدأ السباق، ولكن الأنظار كانت متجهة إلى مقصورة الإمبراطور ومقصورة الإمبراطورة، ومن المدرج حيث احتشد الخضر صفوفًا متراصة، تصاعدت أصوات تحولت شيئًا فشيئًا إلى صيحات منكرة، وصفير، وضجيج، وانزعج جستنيان، وجعل يرقب ذلك الجمهور الهائج، ثم دعا المنادى الواقف خلفه، وطلب منه أن يخاطب الناس سائلاً: "ضد من يُوجَّه هذا الصياح؟".

وخاطب المنادى الناس موجهًا إليهم الكلام باسم الإمبراطور، ودار بينه وبين مندوب الخضر حوار من أعجب ما سجل في صفحات التاريخ. وقد نقل إلينا ذلك الحوار بحذافيره.

ويظهر بوضوح من خلاله إلى أي مدى كان البيزنطيون يتمتعون بحرية القول، والعمل في عاصمة دولتهم، وفي داخل الملعب، حيث يقف الشعب ليناقش الإمبراطور، ويحاسبه على أعماله.

بدأ مندوب الخضر يرد على أسئلة المنادين، ومن حوله رفاقه يؤيدونه في حالة عصبية ظاهرة، وكان الرجل في بادئ الأمر متحفظًا في كلامه، مؤدبًا في تعبيراته، يشير إلى الأشخاص الذين يشكو منهم من غير أن يذكر أسماءهم، ولكنه تحمس شيئًا فشيئًا، وكان أول اسم انطلق من بين شفتيه اسم كالوبوديوس ضابط القصر، ثم صاح الرجل قائلا:

– إننا نستنزل عدالة السماء ونقمتها على كل من يسئ إلينا في المستقبل.

وسأل الإمبراطور بلسان المنادي:

– أنتم لم تحضروا إلى هنا، إذن، لكي تشاهدوا السباق، بل جئتم لكي تشتموا الحكومة.

فارتفعت الأصوات بصيحات عالية من جميع أنحاء المدرج، وسمعت هذه الكلمات:

– الحكومة تظلمنا.. الحكومة تضطهدنا.. العدالة معدومة في هذه المدينة.

ورفع المنادى عقيرته بالصياح مشيرا بيده قائلا:

– اسكتوا.. اسكتوا أيها اليهود.. أيها المتمردون.. أيها السامريون.. اسكتوا وإلا قطعت رءوسكم جميعا.

وارتفعت الصيحات من جوانب الملعب مدوية:

– يهوذا.. يهوذا.. أنت خائن.. أنت قاتل.. أنت مجرم..

وحاول المنادى أن يتكلم، ولكن الخضر اسكتوه بصيحاتهم المنكرة قائلين:

– أسكت.. ليت أباك لم ير النور.. لسنا متمردين أيها المجرم القاتل، ولكننا نطلب الإنصاف.

ثم مضى الحوار بينه، وبينهم على مسمع من الجميع:

– إنكم تتكلمون بلهجة خالية من الاحترام.

– إننا لا نحترم من لا يحترم ضميره.

– تعالوا نتفاهم.

– نحن مستعدون للتفاهم، ولكن مع أناس يعرفون ما هو الخير، وما هو الشر؟

– الإمبراطور يريد الإصغاء إليكم، وإنصافكم.

– الإمبراطور أغلق في وجوهنا أبواب القصر.

– والحكومة مستعدة...

– الحكومة متحيزة ضدنا؛ لأنها مؤلفة من خصومنا.

– إذا تماديتم في صراخكم، سأمتنع عن الرد.

– هذا أوفق.. اسكت من الآن.

وتوالت الشكايات وسط الضجيج:

– نحن محرومون من الحريات... نحن مقيدون... نحن مضطهدون... إن موظفي الدولة يتآمرون علينا مع أعدائنا.

وهنا التفت مئات من الحضر إلى الإمبراطور، وصاحوا موجهين إليه الكلام:

– إنك تقتلنا.. أنك تقتلنا.

وقال مندوبهم مخاطبًا الإمبراطور أيضًا:

– إنك لا تكتفي بحماية الزرق، بل تقتل الخضر إذا اعتدوا عليهم،

أو إذا ردوا عن أنفسهم الاعتداء.

وكان الزرق في أثناء هذا الحوار العجيب قد لموا شملهم، وتجمعوا في جهة واحدة، ثم راحوا يصيحون بدورهم مؤيدين المنادى المتحدث باسم الإمبراطور، فأصبح الملعب منقسمًا إلى مضمارين، مضمار تجمع فيه الخضر، ومضمار تجمع فيه الزرق.

وانطلق الزرق يردون على اتهامات الخضر، فعلا الضجيج إلى حد لم يعد المنادي يستطيع معه أن يتكلم، وكان الجند المكلفون بالحراسة يحاولون حصر الخضر في دائرة ضيقة، وترك الزرق يسيطرون على الموقف، وكان هؤلاء يصيحون مخاطبين خصومهم:

– يا لصوص.. يا خونة.. يا يهود.. يا أعداء الله.. سوف نسكتكم.

وفجأة، سكت الخضر.. وتقدم مندوبهم إلى وسط الحلبة، وخاطب الإمبراطور قائلا:

– يا جلالة المولى.. إذا كنت ترضى بهذا، فليكن ما تريد.. إذا كنت تأمرنا بأن نسكت، فسنسكت نزولاً على أمرك أيها الإمبراطور المقدس.. ولكننا نسكت مرغمين، لا مقتنعين.. إننا نعرف كل شيء.. أسامع أنت؟.. نعم نعرف كل شيء.. ولكننا سنسكت.. عم مساء.. طاب مساؤكم جميعًا.. أيتها العدالة، لقد أصبحت ميتة ودفنت تحت التراب.. طاب مساؤكم، إننا منصرفون من هنا.. سنصبح يهودا.. فخير لنا أن نكون يهودا من أن نكون من الزرق.

وخرج المندوب من الملعب وتبعه الخضر جميعا. وكان خروجهم على هذه الصورة أعظم إهانة يمكن أن توجه إلى الإمبراطور؛ لأن من يدخل الملعب لا يمكن أن يخرج منه بأى حال من الأحوال، ولأي سبب من الأسباب، ما دام الإمبراطور باقيًا في مقصورته.

وبينما كان الشعب الصاخب يتدفق من أبواب الملعب على الشوارع ويسير فيها صائحًا هاتفًا، غادر الإمبراطور جستنيان مقصورته، وعاد إلى قصره، على أمل أن تخمد تلك الفتنة التي أثارها الخضر بفضل الموقف الذي سيقفه الزرق، وبقائهم على ولائهم المعروف للإمبراطور وزوجته.

ولكن محافظ المدينة "أوديمونوس" ارتكب خطأ بدد هذا الأمل، وقلب الحالة رأسًا على عقب. فقد أراد هذا الرجل المعروف بولائه للإمبراطور أن يثبت قدرته على إعادة النظام، والمحافظة على الأمن، فخرج إلى الشوارع على رأس قوة من رجال الشرطة، وقبض على فريق من المشاغبين، وحكم على أربعة منهم بالإعدام بالسيف، وعلى ثلاثة بالإعدام شنقًا، من غير أن يتحقق من انتماء أولئك السبعة إلى أحد الفريقين المتخاصمين.

ولما علم هؤلاء وأولئك، راحوا يسألون عن المعتقلين وعن الذين حكم عليهم المحافظ، ليعرفوا أسماءهم، ويتأكدوا من شخصياتهم، وكان الجلاد قد قطع رءوس الأربعة، وقاد الثلاثة إلى ساحة المشنقة، ولما أراد أن ينفذ فيهم الحكم، انقطعت الحبال، وسقط المساكين على الأرض.. ثلاث مرات متوالية.

وصاح الحاضرون:

– العفو.. العفو.. يجب أن يعفى عنهم.

ذلك لأن التقاليد جرت –منذ أقدم العصور– على أن يعفى المحكوم عليه بالشنق من تنفيذ الحكم، إذا انقطع الحبل وقت التنفيذ، وسقط الرجل على الأرض.

ولكن محافظ المدينة رفض إجابة الجمهور إلى طلبه، وصمم على إعادة الشنق للمرة الرابعة، غير عابئ بالعادات والتقاليد.

وكان هذا كافيا لازدياد هياج الشعب، فهجم على الجند والجلادين، وأنقذ المحكوم عليهم بالقوة وأطلق سراحهم.

ولجأ المتهمون الثلاثة إلى دير مجاور، فحماهم الرهبان، وأدخلوهم إلى الدير، وأغلقوا عليهم الباب.. ثم اتضح أن أحد الثلاثة محايد، وأن زميليه أحدهما من الخضر، والآخر من الزرق.. وهكذا قربت الظروف بين الفئتين، وشعر الزرق والخضر على السواء بأنهم مهددون بالاعتقال والإعدام.

وفجأة، تغيرت الحالة، وعم الاستياء الجميع، وأصبح السكان كلهم يعطفون على الفتنة والقائمين بها، وتوحدت هتافاتهم وصيحاتهم.

وفي اليوم التالي، هرعوا جميعًا إلى الملعب، وتظاهروا طالبين من الإمبراطور العفو عن الثلاثة الذين انقطع بهم حبل المشنقة، وإطلاق سراح المعتقلين الآخرين من أية فئة كانوا.

ودهش الإمبراطور لهذا المظهر الذي لم يكن ينتظره، وراعه أن يتفق الزرق، والخضر في التآمر عليه، فرفض إجابة الشعب إلى طلبه. وكان هذا خطأ فاحشًا أضيف إلى الخطأ الذي اقترفه محافظ العاصمة من قبل، فطفح الكيل، وانطلقت الشرارة التي أشعلت العاصمة.

وبدل أن تنتهى الألعاب كالمعتاد بالهتاف من صفوف المشاهدين: "النصر للإمبراطور جستنيان" علت صيحات صاخبة من نوع آخر، لم يطرق مثلها مسمع الإمبراطور من قبل: "عاش الخضر وعاش الزرق.. عاش الاتحاد في سبيل الرحمة والعفو"

ثم غادر الخضر الملعب وفيه الإمبراطور كما فعلوا في اليوم السابق، وسرعان ما لحق بهم الزرق أيضًا، فتدفقت جموع هؤلاء وهؤلاء على الشوارع، وتركوا جستنيان في حالة من الذعر أوشكت أن تفقده الصواب.

وكان الناس يتنادون، ويتصايحون، ويتجمعون، وقد اتخذوا كلمة واحدة للتفاهم: "نيكاس"؛ ومعناها "النصر".

وأصبحت تلك الثورة تعرف في التاريخ منذ ذلك الوقت باسم: "نيكاس".

وفي اليوم التالي، طرقت الجموع الثائرة أبواب القصر، مطالبة بطرد الضابط كالوبوديوس، والمحافظ أوديمونوس، وكابادوكي وتريبيونيانوس!

وخاف الإمبراطور، ورأى نفسه مضطرًا إلى التسليم بمطالب الشعب، فطرد الأربعة، وأعلن ذلك على الثائرين.. وعين في الوقت نفسه في

منصب المحافظ رجلا معروفًا بشعبيته يدعى "فوكاس". وفي منصب مدير الشئون المالية عين رجلا آخر رضى به الشعب أيضًا يدعى "بازيليدس". وخرج الرجلان إلى الميدان، فقابلتهما الجماهير بالتصفيق والهتاف، واعتقد الإمبراطور أن الخطر قد زال، وأن الثورة توشك أن تخمد.

ولكن الثائرين كانت لهم مطالب أخرى، وقد جاءت إجابة الإمبراطور بعد فوات الوقت. وبعد أن بلغ الهياج أشده، وأدرك الشعب مدى قوته من اتحاده في ساعة الخطر. وعلى هذا استمرت الثورة حتى شملت جميع المنتمين إلى فريقي الخضر والزرق، وكثير من المحايدين.

على أن الثورة لم تمتد إلى الفئة الوادعة السليمة البعيدة عن روح الحزبية. ولهذا اعتقد جستنيان أن هناك أملا في إعادة الهدوء إلى المدينة بغير حاجة إلى دفع الجيش إلى الشوارع لمطاردة الشعب والفتك بالثائرين.

غير أن تفاقم الحالة، واتساع نطاق الاضطرابات، وتمادى فريقي الخضر والزرق في الجرأة والاعتداء على دور الحكومة، جعل الإمبراطور يطلق على الثائرين فرقة الحرس الإمبراطوري المؤلفة من الجنود الأجانب بقيادة "بليزيروس" زوج الوصيفة أنطونينا.

وخرج أولئك الجنود الأشداء القساة إلى ميادين العاصمة وشوارعها، وراحوا يطاردون الناس بلا تمييز ولا تفريق، وحدث أن التقوا، في ميدان آيا صوفيا بجماعة من الرهبان خرجوا من الكنيسة حاملين الصلبان والأيقونات المقدسة، على أمل أن يعيدوا الوئام إلى المدينة، فهاجموهم، واعتدوا عليهم بالضرب.

وأمام هذا المنظر المثير، جن جنون السكان، واعتقدوا أن الجنود قد تلقوا أمرًا من قائدهم –إن لم يكن من الإمبراطور– بالاعتداء على الرهبان أنفسهم، وإهانة الدين في أشخاصهم، فاختلط الحابل بالنابل، وانقلب الناس جميعًا إلى ذئاب مفترسة.

هجم البيزنطيون على الجنود في الشوارع، وجعلت النساء يقذفن عليهم من الشرفات والنوافذ كل ما يمكن أن يقذف من البيوت: الحجارة، والأدوات المنزلية، والأباريق، وقطع الأثاث، والعلب المملوءة بالرمل، والخرق الملتهبة، وقروميد السطوح، وكل ما وصلت إليه الأيدي.

وأدى اشتراك النساء في تلك المعركة العجيبة إلى مضاعفة ثورة الرجال، فاضطر الجنود إلى التراجع بانتظام عائدين إلى القصر حيث دخلوه، وأغلقوا على أنفسهم الأبواب، بينما انطلق الشعب يضرم النار في المباني الحكومية، وبيت الموظفين، وقصور الحكام، ورجال الحاشية.

وكانت رؤية النيران المندلعة وألسنتها المرتفعة نحو الفضاء تزيد الناس جنونًا على جنون، فجعلوا يطوفون في المدينة حاملين المشاعل والمواد الملتهبة، ويوسعون نطاق الحريق ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

واحترقت دار مجلس الشيوخ، كما احترقت كنيسة آيا صوفيا نفسها، درة الدرر في بيزنطة فضلا عن ثكنات الحرس، ودور الشرطة، وغيرها من المباني الحكومية. وامتدت النيران إلى أطراف القصر المقدس نفسه.

وظلت النار تلتهم المدينة ثلاثة أيام، تساعدها الرياح على الانتشار، حتى أتت على طائفة من المباني المشهورة، ككنيسة القديسة أرين،

وحمامات الإسكندر، ومستشفى سامبسون الذي مات فيه المرضى حرقًا، ومخازن السوق الكبرى، وأتت على حي كامل بما فيه من قصور، وبيوت، ومخازن، وكنائس وغيرها، بين ميدان الإمبراطورية وملعب قسطنطين، وهكذا تحول ما يقرب من ربع المدينة إلى رماد.

ثم أن الجيش نزل إلى الميدان من جديد، ولكنه فشل في إعادة النظام.

وساد الذعر جوانب القصر المقدس نفسه، فإن الجيش لم يكن عدده كافيًا للسيطرة على الحالة، برغم النجدات التي وصلت إلى العاصمة تباعًا من حاميات المدن المجاورة.

وكان جنود الحرس جميعًا معدين للزينة، والاشتراك في المواكب الرسمية لا للقتال في الميادين، أو لإخماد الثورات، فضلا عن أن ولاءهم للإمبراطور والإمبراطورة كان مشكوكًا فيه، فمعظمهم من الأجانب الذين دخلوا في خدمة جستنيان طمعًا في الأجر المرتفع والمغانم الأخرى، فلما نشبت الثورة، لم ينفذوا عن طيب خاطر الأوامر الصادرة لهم بالتدخل، حتى إذا ما تفاقمت الحالة، وأبدى الشعب الثائر ما أبداه من جرأة وإقدام، بأن أولئك الجنود يرقبون تطور الاضطرابات لكي ينضموا إلى الفريق المنتصر، وقد أدرك جستنيان –والقائد بليزيروس– خطورة هذا الموقف، وتباحثا فيما يجب عمله أمام تردد الحرس، وما ترتب عليه من فشل كل خطة للقضاء على الفتنة، ولم يكن في وسعهما الاعتماد التام إلا على فرقة الجنود الروم التي عادت أخيرًا من بلاد الفرس مع بليزيروس، وعلى حرس القائد

الخاص، ومجموع هؤلاء كلهم نحو ثلاثة آلاف من الجنود المدربين، يضاف إليهم ثلاثة آلاف غيرهم وصلوا صدفة إلى بيزنطة من مختلف أنحاء الدولة، وبعض السكان ممن كانوا يستنكرون الثورة، ويربطون مصيرهم بمصير جستنيان وتيودورا.

أمام هذه الحالة، دب اليأس إلى نفس الإمبراطور، وخيل إليه أنه يرى متآمرين في كل ناحية، وأن في القصر نفسه أعداء مجهولين يتربصون به الدوائر، متأهبين للانقضاض عليه.

وكان هيباتيوس وبومبيوس –أبنا أخي أنستاسيوس– الوارثان الشرعيان للعرش، قبل أن ينتقل إلى أسرة جستنيان، قد أسرعا في الحضور إلى القصر، لإعلان ولائهما للإمبراطور، مؤكدين له أنهما لا يفكران في الانتقاض عليه، أو الانضمام إلى الناقمين، أو اغتنام الفرصة السانحة لتحقيق هدف أو مأرب؛لأنهما ليس لهما مآرب وأهداف.

وعرض عليه الشابان أن يقيما معه بالقصر، ووضعا أنفسهما تحت تصرفه، وألحا عليه أن يلحقهما بجيشه أو حرسه، ليدافعا عنه وعن العرش، ولكن جستنيان شك في ولائهما، وظن أن تصرفهما هذا ليس سوى حيلة ماكرة للإيقاع به، وأن رغبتهما في البقاء بجانبه أنما الغرض منها تدبير مؤامرة في القصر المقدس للاستيلاء على العرش والصولجان.. وعلى هذا قابلهما بفتور. وطلب منهما أن يعودا إلى دارهما، ولم تؤثر فيه توسلاتهما.

ولم يدر الإمبراطور أنه بطردهما من القصر قد زود الثائرين بأهم ما كان ينقصهم، إذ قدم لهم زعيما بل زعيمين يلتف حولهما الناقمون،

ويتخذونهما رمزًا لثورتهم الجامحة التي لا تقف عند حد.

وفي ١٨من يناير؛ أي في اليوم السادس للفتنة، قرر جستنيان الإقدام على عمل مشبع باليأس، وجاء قراره هذا بعد ليلة قضاها ساهدًا قلقًا، فخرج من جناحه بالقصر، في ساعة كان فيها الشعب يملأ مدارج الملعب، واجتاز الممرات، والدهاليز المؤدية إلى مقصورته، وظهر فيها فجأة وفي يده الإنجيل قد رفعه فوق رأسه، وخاطب الشعب قائلا:

إنني أقسم لكم بالإنجيل الطاهر، أنني أعفو عن جميع الذين اشتركوا في هذه الفتنة، من قريب أو من بعيد، وأيًا كان نصيبهم فيها، وذلك إذا القيتم جميعكم السلاح من أيديكم الآن، وعدتم إلى بيوتكم، وإلى أعمالكم في هدوء، وسلام، ونظام.

وساد الصمت ذلك الجمع الصاخب، وتطلع الناس مدهوشين إلى الإمبراطور وهو في ذلك الموقف الذي لم يقفه ملك من قبل، وإذا به يستطرد قائلا بلهجة فيها رجاء وفيها ندامة، بل فيها توسل:

– إنني أعلن على مسمع منكم جميعًا أنني سبب ذلك الذي حدث، وأنني المذنب الوحيد.. لقد أخطأت عندما رفضت إجابتكم إلى ما طلبتم مني في الملعب، يوم جئتم تناقشونني، وتحاسبونني، وتتوسلون إلى بأن أنصفكم.. نعم إنني مذنب، وأنا على استعداد للتكفير عن ذنوبي.

كان هذا الموقف العجيب فوق ما يمكن أن يتصوره عقل إنسان، ويحار المؤرخون في تعليله، وتحديد الأسباب التي دعت جستنيان إلى هذا التذلل أمام الجماهير الناقمة الثائرة.

والذي حدث بعد أن ألقى الإمبراطور هذه العبارات المدهشة، كان لابد من حدوثه في مثل هذا المقام.

فقد علا الصياح بعد الصمت المؤقت، وارتفع الضحك من بعض الصفوف، وانطلقت في الجو عبارات لم تطرق سمع ملك من قبل:

– كذاب.. كذاب.. خائن.. حمار.. ملعون.. حمار ابن حمار.

وتطايرت من الأيدي مئات من الحجارة نحو المقصورة الملكية، مصحوبة بأبشع الشتائم والمسبات:

– الإمبراطور حمار... الإمبراطورة خائنة... لعنة الله على الاثنين.. إلى الجحيم أيها الكلب المسعور.

ولم يبق أمام الإمبراطور إلا أن ينسحب، فانسحب مسرعًا، وعاد من خلال الدهاليز والممرات إلى جناحه في القصر المقدس، وحبس نفسه فيه،وهو لا يدرى ما ينبغى له أن يصنع.

وكانت الإمبراطورة غارقة في التفكير، مترددة بين الآراء التي تسمعها، والأفكار التي تجول في خاطرها. وكانت تنهض، وتروح، وتجئ في جناحها، متمتمة بين شفتيها:

– أممكن هذا... أممكن هذا؟

ووقع ما مهد له جستنيان بنفسه، عندما طرد من قصره هيباتيوس، وبومبيوس.

كان الشعب في خلال الحوادث التي توالت منذ نشوب الثورة يهتف

من وقت إلى آخر باسم هيباتيوس. وكان المفكرون من الخضر والزرق على السواء يشعرون بأنه لابد لهم من زعيم يتولى قيادة حركتهم؛ لأن كل حركة شعبية تفتقر إلى زعامة لكي تنضج، وتنجح، وتؤتى ثمارها. فذهبوا إلى قصر الأمير، وطلبوا منه أن يخرج إلى الشارع ليتولى قيادة الثورة.

وعبثا حاولت زوجته "مارى" أن تثنيه عن الذهاب معهم، فأمسكت بثيابه، وتعلقت بعنقه، وجعلت تبكي، وتتوسل؛ طالبة منه أن يبقى في قصره ولا يخرج منه، وطلبت من أصدقائه ومريديه أن يتركوه وشأنه، ويبحثوا عن زعيم آخر يتولى القيادة في ثورتهم، مصرحة لهم قائلة أن نفسها تحدثها بأن زوجها ذاهب إلى الموت.

ولم يكن هو نفسه مرتاحًا إلى تطور الحالة على هذه الصورة، وإلى إقحامه في مسألة كان يود البقاء بعيدا عنها. فحاول أن يمانع، وأن يقنع الناس بأن يبحثوا عن غيره زعيما لثورتهم، ولكنهم تشبثوا برأيهم إذ لم يكن أمامهم سواه، وأرغموه على الخروج معهم في مظاهرة رائعة إلى ملعب قسطنطين، وهناك رفعوه على ترس من النحاس، وحملوه على الأكتاف، ومعنى هذا أنهم نادوا به ملكًا عليهم.

وبحثوا عن تاج يطوقون به جبينه فلم يجدوا، وانتزع جندي عقدًا من العقود الذهبية التي يضعها جنود الجيش الرومي حول أعناقهم، وطوق به جبين هيباتيوس، قائلا: أن هذا العقد خير من ألف تاج.

وجاءه أتباعه بالطيلسان وشارات الملك، وكانوا قد سرقوها كلها من القصر يوم حرقوا جانبا منه ونهبوه، وهكذا وجد هيباتيوس نفسه محاطًا

بجموع من الأعوان المتحمسين، وقد ارتدى ثياب الملك، ووضع على رأسه تاجًا، وأمسك بيده صولجانا، فأصبح "إمبراطورًا" باسم الثائرين.

وتألف موكب ذهب بهإلى ملعب العاصمة، وهناك حمله الناس على الأكتاف مرة أخرى، وصعدوا به إلى المقصورة الملكية، وأجلسوه في المكان المعد لجستنيان، وراحوا يتباحثون ويتناقشون لتقرير الخطة المثلى للهجوم على القصر المقدس، وللاستيلاء عليه،وإجلاس هيباتيوس على عرش جستنيان.

وعبثا حاول بعض العقلاء إقناع الجماهير بأن هذا قد يؤدى إلى عواقب وخيمة، ويثير حربًا أهلية في البلاد، فقد صمم الثائرون على المضي في خطتهم إلى النهاية، وظل هيباتيوس صامتًا مستسلمًا لإرادة الجماهير.

وازداد عدد الثائرين بمن انضم إليهم من الناقمين، وسكان الضواحى، والمرتددين، وأعلن فريق من أعضاء مجلس الشيوخ، والإشراف، والنبلاء، والقواد انضمامهم إلى حركة العصيان، وتأييدهم للمناداة بهيباتيوس إمبراطورًا على بيزنطة بدلا من جستنيان.

وراجت في المدينة إشاعة تؤكد أن جستنيان وتيودورا غادرا القصر خلسة وفرا من العاصمة، وجعل الشبان المنتمون لحزب الخضر يطوفون في الشوارع معلنين هذا الخبر، واعتقدوا أن النصر قد حالفهم، وأن خطتهم قد نجحت بحذافيرها، حتى أن هيباتيوس نفسه عاودته الثقة وظن أنه أصبح حقًا إمبراطورًا على بيزنطة.

كان ذلك في مساء يوم ١٨ من يناير، وكانت الساعة رهيبة، وخيل

لمن كانوا يراقبون الحالة أن الإمبراطورية توشك أن تنهار.. فالمدينة تحترق، والنيران تمتد بدل أن تحصر أو تخمد. وفي داخل الملعب يحتشد الشعب واثقًا من أنه أحرز النصر، وهتافاته للإمبراطور الجديد هيباتيوس تدويفي الأرجاء، بينما أقذع التهم والشتائم توجه إلى جستنيان وتيودورا.

وهكذا صار القصر المقدس مهددًا بالسقوط في قبضة الثوار بين لحظة وأخرى، بينما الإمبراطور جستنيان يائس من نفسه وممن حوله، ولا أمل له في القضاء على الفتنة؛ إذ ليس لديه الوسائل اللازمة لإنقاذ نفسه من ذلك المأزق الحرج، بل أنه ليرتعد خشية على حياته، ويشعر بأن ساعته الأخيرة قد دنت.

وصدرت الأوامر بأن ترسل كنوز العرش وما تحويه الخزائن من أموال وتحف إلى المراكب الراسية أمام القصر، فقد اعتزم جستنيان أن يغادر العاصمة ويهرب إلى الخارج بأمواله، ومعه زوجته، ومن يرغب من رجال الحاشية في اللحاق به.

وعقد جستنيان مجلسًا خاصًا، دعا إليه الأشخاص الذين لا يشك في ولائهم له، وفي مقدمتهم: بليزيروس، وموندوس، وبازيليدس، وحضرت الإمبراطورة تيودورا هذا الاجتماع بعد أن قضت أيامًا معتكفة في جناحها الخاص مستغرقة في التفكير، والواقع أنها هي وحدها التي ظلت محتفظة بهدوئها, ورباطة جاشها, وثقتها بنفسها، بينما كان زوجها الإمبراطور قد استسلم لليأس، وفقد كل أمل في الخلاص، ولم يعد يفكر إلا في الهرب، وكان وزراؤه وقواده يشاركونه هذا الشعور.

لقد خارت عزائم كل من في القصر الإمبراطوري المقدس، ما عدا عزيمة تيودورا.

لم تكن قد تكلمت بعد، لا قبل انعقاد المجلس، ولا في خلاله، ولا في أثناء الحوادث الدامية التي ظلت العاصمة بضعة أيام مسرحًا لها.. وبقيت تصغي لكل ما يقوله المجتمعون وهم يتجادلون ويتباحثون، ثم رفعت يدها فسكنوا جميعا، ونهضت الإمبراطورة من مكانها، ووقفت في وسط أولئك الرجال، وصاحب بهم قائلة:

– مالي آراكم مستضعفين متخاذلين، ترتجفون خوفًا، وتستسلمون استسلام اليائسين الخائنين؟!. مالي أراكم تنسون واجباتكم، أو تخونونها، أو تتخلون عنها؟.. مالي أراكم تعترفون بالهزيمة، والهزيمة لم تحل بكم بعد؟.. هل قاومتم ففشلتم؟.. هل قاتلتم فانكسرتم؟.. هل لجأتم إلى جميع ما في متناول أيديكم من وسائل فأفلت منكم الزمام، إنكم تفكرون من الآن في الفرار، بينما توجد أبواب أخرى ما زالت مفتوحة أماكم.. والله لو لم يعد أمامي منفذ آخر إلى النجاة غير الهرب، لرفضت ولوج هذا المنفذ، حتى لا أدير ظهري للأعداء... كلا! إن تيودورا لن تهرب.. إن الذين يضعون التاج على رءوسهم، يجب أن يظلوا أحياء إذا فقدوا ذلك التاج، أيا كانت الأسباب التي من أجلها فقدوه.. إذا سقط التاج عن رأس ملك، فعلى الملك أن يموت مع تاجه.. فإذا كان ملكًا صالحًا، وجب عليه الدفاع عن تاجه، أو الموت دونه.. وإذا كان ملكًا طالحًا، وجب عليه أن يخلط عاره بعار تاجه، ويفقد الحياة مع فقده.. وتيودورا لن ترى اليوم الذي يمتنع فيه الناس عن مناداتها بلقب صاحبة الجلالة.

ثم التفت إلى زوجها الذي وقف مشدوهًا، وقالت له:

– أما أنت يا إمبراطور بيزنطة، فاذهب، إن كنت عازمًا على الفرار، ولديك ما يكفي من المال، وأمامك السفن تنتظرك لتقلع بك إلى حيث تريد، والبحر مفتوح في وجهك وفي طريقك.. اذهب أين شئت، أما أنا فباقية.. نعم باقية، للدفاع عن تاج شرفني فشرفته، وراق لى فرقت له، ولم ارتكب ذنبًا استحق من أجله أن أطرد عن العرش، لأننى حافظت على كرامته وسمعته، ولم الطخه بعار.. نعم إننى باقية، لأنني أؤمن بقول من قالوا: أن طيلسان الملك أبدع الأكفان على الإطلاق.

هذا ما قالته تيودورا للإمبراطور اليائس، ولرجاله اليائسين. قد انقذت الإمبراطورة عرش زوجها بهذه العبارات الجريئة وذلك الموقف الرائع.

إن تيودورا، المرأة ذات الماضي الملطخ، والممثلة المتوجة، قد ارتفعت في ذلك اليوم العصيب، وفي غمرة ذلك الصراع العنيف في سبيل التاج والحياة إلى مصاف الأبطال الخالدين.

كانت المرأة في ثورة نيكاس أعظم من الرجال.

فما كادت الإمبراطورة تتفوه بتلك الكلمات الجارحة حتى شعر زوجها ورجال حاشيته وقواده بالخجل يعلو جباههم، وبالأمل يدب من جديد في نفوسهم، ونهضوا لساعتهم، ورفعوا أيديهم، وأقسموا أن يناضلوا حتى النهاية، فإما أن يحرزوا النصر، وأما أن يموتوا في الميدان.

وقال جستنيان لزوجته:

– سأبقى بجانبك.. ولن أهرب، وسوف نحتفظ بالتاج لأننا كما تقولين لم ندنسه بعار.

ووضع الإمبراطور وزوجته وأعوانهم خطة العمل، بل أنهم وافقوا على الخطة التي كانت تيودورا نفسها قد وضعتها، وجاءت تعرضها عليهم في ذلك الاجتماع الحاسم، وانصرف كل منهم للقيام بنصيبه من التنفيذ.

عهدت تيودورا إلى صديقها الأمين "نرسيس" أن يحمل فئة الزرق على الانفصال عن فئة الخضر. فيذكرهم بماضيهم، وبالخدمات والنعم التي أغدقتها عليهم الإمبراطورة. وزودته بمبالغ طائلة من المال لكي يشترى اقتناع المترددين، ويدفع لهم ثمن تأييدهم.

وانطلق نرسيس ومعه جماعة من الأنصار الأوفياء، ينفذ ما أمرته به المرأة الداهية، فنجح إلى أبعد مما كان يرجو ويتصور. ومنذ اليوم الأول تمكن من إلقاء بذور الخلاف بين الزرق والخضر، فتفككت صفوفهم، وانحلت وحدتهم، وفي مساء اليوم الذي عقد فيه مجلس الإمبراطور، سمعت هتافات أمام القصر منبعثة من آلاف الحناجر:

– عاش جستنيان.. عاشت تيودورا صديقة الضعفاء.. الله يرعى جستنيان وتيودورا.. الحياة والسعادة لحامية المظلومين.

وفي الوقت الذي أخذ فيه هذا التحول يتسع نطاقه، كان بليزيروس وموندوس يحشدان قوات كافية لضرب الحصار على الملعب واقتحامه،

وكان الشعب لا يزال محتشدا فيه، يهتف لهيباتيوس الجالس في مقصورة الإمبراطورة، وعلى رأسه العقد المذهب، وعلى كتفيه الطيلسان الأرجواني.

وفي اليوم التالي، أمر بليزيروس وموندوس جنودهما بالهجوم، وتحطمت الأبواب، وزالت العراقيل. ولكن الجنود الموالين للثائرين، والذين كانوا معتصمين في معاقلهم داخل الملعب ردوا المهاجمين على أعقابهم، ورفضوا التخلي عن الإمبراطور الجديد، فاضطر بليزيروس ورفيقه إلى التقهقر عائدين إلى القصر المقدس، وقالا: أنهما لن يقويا على احتلال الملعب، وأن القضية التي يدافعون عنها قضية خاسرة.

وفي هذه المرة تقدم جستنيان نفسه لإعادة الثقة إلى نفوس رجاله، وتشجيعهم على استئناف الكرة، وانضمت إليه تيودورا قائلة:

– إن أصدقاءنا الزرق قد أرسلوا يؤكدون لنا أنهم على استعداد لتمهيد الطريق للجيش، وفتح ثغرة ينفذ منها إلى حلبة الملعب الوسطى.

وعاود بليزيروس الكرة بنخبة مختارة من جنوده الأشداء، ونجح الهجوم في هذه المرة، وتم للقائد دخول الملعب واحتلال حلبته، بعد أن فتك بعدد كبير من المتمردين الذين دافعوا عن المنافذ دفاع اليائس المستميت.

ولما بلغ موندوس ما حدث، وثب برجاله البرابرة، وانضم إلى زميله بعد أن اقتحم الملعب من باب يعرف بباب الموت، وانقسم الجنود إلى فريقين: فريق ظل يعمل السيف في الثائرين في حلبة السباق، وفريق صعد إلى المدارج والمقاصير، وراح يمطر الخضر وابلاً من السهام، والنبال،

والحجارة، بينما كان الزرق من ناحيتهم يسهلون للجنود مهمتهم، أو ينضمون إليهم علنا لمهاجمة الخضر الذين كانوا حلفاءهم بالأمس.

وتحولت ساحة الملعب إلى ميدان لمجزرة هائلة، واستولى الذعر على الشعب، فراح الباقون على قيد الحياة يطلبون النجاة، ولكن الجنود كانوا ينفذون الأوامر الصادرة إليهم بألّا يدعوا أحدا يخرج من الملعب حيًا، وإذا خرج، فإن الزرق كانوا يتلقفونه في الشارع ويقضون عليه.

وفي مساء ذلك اليوم، غطت أرض الملعب وشوارع المدينة ثلاثون ألف جثة! وكان معظم القتلى من الخضر. أما الزرق فلم يقتل منهم غير القليل؛ وذلك لأن الجنود كانوا يتجنبون الفتك بهم؛ ولأن فريقًا كبيرًا منهم كان قد انفض عن الحرك، وانقلب على الخضر، فبقى هؤلاء وحدهم في الميدان.

وهكذا فشلت ثورة نيكاس؛ لأن الثوار لم يحافظوا على وحدتهم؛ ولأن تيودورا عرفت كيف تستغل عطف الشعب عليها، وتعلق الزرق بها؟ واعتقاد الضعفاء، والفقراء أنها صديقتهم وحاميتهم.

وقبض أنصار جستنيان على هيباتيوس، من غير أن يحاول الذين توجوه والبسوه الطيلسان أن يحموه أو ينقذوه، وجئ به إلى جستنيان مع رفيقه بومبيوس، وكان هذا رجلا ضعيف الإرادة، جبانًا، رعديدًا. فجعل يبكي ويتوسل طالبًا الصفح والمغفرة، مؤكدًا أنه زج به كارهًا في تلك النكبة، أما هيباتيوس، فكان رابط الجأش، ولكنه جعل يقسم مثل رفيقه بأن الشعب دفعه دفعا إلى مسايرة الحركة الثورية، ألبسه التاج والطيلسان

بغير رضاه. وأكد أنه دعا أنصاره إلى إلقاء سلاحهم في حلبة الملعب؛ لكي يسيطر الجنود على الحالة، ويعود الأمن إلى نصابه، وتعود الحقوق إلى أصحابها، وأقسم أنه عهد إلى واحد من أصدقائه بالذهاب إلى جستنيان، ودعوته إلى الملعب ليسمعه بنفسه وهو يعلن ولاءه لعرشه ودعوة المتمردين إلى الاستسلام.

وكان هذا صحيحا. فقد فعل هيباتيوس ذلك في أثناء معركة الملعب، ولكن رسوله لم يتمكن من الوصول إلى الإمبراطور لإبلاغه الرسالة، ولهذا، فإن جستنيان، وقد استعاد رشده، وأحس بأنه ملك زمام الأمر من جديد، التفت إلى هيباتيوس، وقال بلهجة المستهجن المستنكر:

– هذا جميل.. ولكن ما دامت لك هذه السلطة على الثائرين، وما دمت قادرًا على دعوتهم لإلقاء السلاح، فلماذا لم تستخدم هذا النفوذ قبل أن تستفحل الحالة، وقبل أن يحرق المشاغبون عاصمة ملكي؟

وفي اليوم التالي أمر جستنيان بأن يعدم هيباتيوس وبومبيوس، فنفذ أمره، وألقيت جثتاهما في مياه البوسفور.

وقيل في هذا: أن جستنيان كان يميل إلى العفو والصفح، بعد أن أكد له أبنا أخيه أنهما لم يتعمدا العصيان، ولم ينضما إلى الثورة بملء إرادتهما، ولكن تيودورا تدخلت في الأمر، وهي التي ألحت على زوجها بوجوب التخلص من الرجلين، وأعدامهما علنًا؛ لكي يأمن الإمبراطور شرهما في المستقبل.

وهذا هو الأقرب إلى التصديق، فإن تيودورا كانت قد أقسمت، يوم

وضعت خطتها موضع التنفيذ ألا ترحم الزعماء الذين أثاروا هذه الحركة، وأضرموا النار في المدينة.، ولهذا أطاعها الإمبراطور وأمر بإعدام ابنى أخيه.

ولم يكن إعدام الشابين كل ما أقدمت عليه تيودورا بعد أن أخمدت الثورة، وتشتت القائمون بها، وقتل منهممن قتل. فقد حوكم فريق من أعضاء مجلس الشيوخ، ومن النبلاء وكبار القوم، بتهمة الاشتراك في الثورة، أو التحريض، عليها أو تشجيعها، وأعدم بعضهم، وأرسل البعض الآخر إلى المنفى.

وصودرت أملاك هؤلاء جميعًا، وأموالهم، واستولى عليها بيت المال، أو وزعت على أسر الموظفين والجنود الذين أصيبوا في خلال الاضطرابات. ولكنها لم تمس عامة الشعب بأذى، بل عفت عنهم جميعًا!

وطورد الأشخاص الذين ثبت أنهم خانوا الأمانة، وتخلوا عن الحكومة في ساعة الشدة، كالحكام، والموظفين، والضباط، وجنود الحرس، والزرق الذين تواطأوا مع الخضر فكان تحالفهم معهم سببًا لاتساع نطاق الثورة.

وأشرف محافظ العاصمة على التحقيق وإحالة المتهمين إلى المحاكم، وعاشت المدينة مدة من الزمن في ظل الإرهاب.

وأسدل الستار على تلك الثورة، وأعلن جستنيان في أنحاء المملكة أنه قضى على محاولة قام بها اثنان من المطالبين بالعرش لإقصائه عنه.

غير أن الفضل أولاً وآخرًا في إزالة الخطر، وبقاء جستنيان على عرشه، يعود إلى تيودورا.

وثورة "نيكاس" تعد في حياتها صفحة رائعة، ففى ذلك الظرف العصيب، أثبتت الممثلة المتوجة أنها سياسية بارعة، وبطلة جريئة، وقائدة تعرف كيف تفرض إرادتها وتحمل الناس على احترامها. كما أثبتت قبل ذلك أن لها مكانة سامية في نفوس طبقات الشعب، وأنها تعرف كيف تخاطبه وتعامله.

وكانت تيودورا، حتى ذلك الوقت، تشاطر الإمبراطور سلطته باعتبار أنه أضعف منها إرادة وشخصية، ولكنها بعد انتصارها في صورة "نيكاس" استحقت أن تشترك في الحكم؛ لأنها أهل له، ولأن آراءها كانت في كل حين وآن أفضل من آراء الإمبراطور، ورجال حاشيته، ووزرائه. ولو لم تكن تيودورا شريكة زوجها في السلطة، لما تمكن جستنيان بدوره من التغلب على ثورة نيكاس. فتيودورا أنقذت للإمبراطور عرشه، وصانت له سلطته، وعرفت كيف تحتفظ بحب الشعب برغم أن الثورة التي أخمدتها كانت شعبية، اشتركت فيها الفئتان اللتان ينتمي إليهما سكان بيزنطة.

ولما جاءها الذين عفت عنهم من زعماء الحركة، يشكرونها، ويجددون الولاء لها، قال لها المتحدث باسمهم:

– لقد خضعنا لك أنت، وألقينا السلاح لأنك أنت التي أردت منا أن نلقيه، ونريد الآن أن يعود الصفاء بينك وبيننا.

وعاد الناس إلى أعمالهم وهم يتهامسون بأن تيودورا انتقمت لنفسها من الكبار، ولم تنتقم من الصغار.

حينما تحكم المرأة

أجمع معاصرو تيودورا على القول بأنها مارست السلطة التي استمدتها من زوجها الإمبراطور، بلا قيد ولا شرط، بل أن سلطتها أحيانًا كانت تعلو على سلطة جستنيان نفسه، وقد اعترف هو بذلك في وثيقة رسمية، حين أصدر المرسوم التاريخي الذي أعاد بمقتضاه تنظيم الإدارة في أنحاء المملكة، وعده المؤرخون أعظم الأعمال التي قام بها، ففي مقدمة ذلك المرسوم التاريخي، صرح الإمبراطور بأنه لم يصدره إلا بعد أن استشار الإمبراطورة المبجلة، والزوجة الوفية التي منّ بها الله عليه، فى كل ما تضمنه المرسوم من قرارات.

كان جستنيان يحب زوجته حبًا لا حدود له. وظل هذا الحب يضطرم في قلبه حتى بعد موتها، وحتى ساعته الأخيرة. فإنه لم ينس أبدًا تلك الحسناء الساحرة التي عشقها وهي في أوج جمالها وروعتها، وطغت عليه بذكائها الخارق، وفطنتها، وبعد نظرها وإرادتها النافذة؛ لذلك لم يرفض لها طول حياتها أي طلب، ولم يحدث مرة واحدة أن علت كلمته على كلمتها، أو نفذ رأيًا لم يكن متفقًا مع رأيها، وقد أغدق عليها جميع أنواع المجد، والثروة، والجاه، وشاطرها عرشه وسلطانه، فجعلها تحكم معه، بل جعلها تحكم وحدها في كثير من الأحيان.

وقد ظلت تيودورا على العرش إحدى وعشرين سنة، وضعت يدها خلالها على كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة، وفرضت كلمتها، فكانت تفعل ما تريد بصرف النظر عما يريده الإمبراطور، أو أعوان الإمبراطور.

نظمت شئون الإدارة كما تريد، ووضعت أعوانها، ومحاسيبها، وصنائعها في الوظائف التي اختارتهم لها، أو أختارتها لهم، وتدخلت في شئون السياسة، فنظمت العلاقات بين بيزنطة والدول الأخرى كما أرادت، وفرضت على مندوبي الدولة مارسمته بنفسها من خطط وتدابير. كما تدخلت في شئون الكنيسة، فكانت وراء كل عمل أقدم عليه الرؤساء الروحيون، وكل قرار أصدرته المجامع الكهنوتية.

ولابد من الاعتراف بأن تيودورا لم تسلم من ارتكاب أخطاء كثيرة، فهي امرأة على كل حال، وقد كان لكبريائها وجشعها في بعض الأحيان أثر مشئوم في أعمال الإمبراطور، وعواقب يؤسف لها، ألحقت بالدولة بعض الأضرار.

على أنه لابد من الاعتراف أيضًا بأن حسنات تيودورا كانت أكثر من سيئاتها، وبأنها كانت ملكة عظيمة عرفت في أكثر الظروف والأحوال كيف توجه سياسة الدولة طبقًا لمقتضيات الصالح العام، ولو أنها عاشت وظلت تمارس السلطة مع زوجها حتى وفاته، لاستطاعت أن تنفذ المشروعات الرائعة التي كانت تخامر ذهنها، ولأصبحت الدولة البيزنطية أقوى وأصلح مما كانت، ولتغير وجه التاريخ ومجراه.

ولكن تيودورا ماتت قبل الأوان.

ولا تزال آثار تيودورا باقية حتى الآن، تتحدث عما كان لها من همة عالية، ومكانة سامية في تاريخ الدولة البيزنطية"أعظم الدول في عصرها".. فهناك على جدران الكنائس التي بناها جستنيان، وفوق أبواب المعاقل،

والحصون، والقلاع التي شيدها في أنحاء المملكة، حفر اسم تيودورا بجانب اسمه.

وفي أماكن كثيرة يرجع عهدها إلى عهد تيودورا، حفرت آيات الشكر والثناء والتقدير، موجهة كلها إلى الإمبراطورة التي صنعت في حياتها ما يعجز عن صنعه أعاظم الرجال، واشتهرت بتقواها وورعها، بعد أن اشتهرت بفسقها وفجورها. وكان مواطنوها يلقبونها بالإمبراطورة المبعوثة من الله، ولم يلقبوا أحدًا غيرها بمثل هذا اللقب المقدس الفريد.

وأقيمت لها النصب، والتماثيل في حياتها، ولم يحدث مثل ذلك لغيرها ممن جلسن على عرش بيزنطة.

وكثيرًا ما كان البيزنطيون، بعد موت إمبراطور أو إمبراطورة، أو بعد سقوط أسرة وقيام أخرى مكانها، يعمدون إلى محو أسماء الراحلين، وتحطيم آثارهم؛ ليحلوا محلها أسماء وآثارًا أخرى. وقد فعلوا هذا مع عشرات من ملوكهم وملكاتهم، فأزالوا أسماءهم وآثارهم من الميادين، والحصون، والملاعب، والقصور، ولكنه لم يحدث في أي عصر من العصور التالية لعهد تيودورا وزوجها جستنيان، أن امتدت يد لمحو اسميهما، أو طمس معالم صورهما وتماثيلهما من أى مكان.

ومما لم يحدث مثله أيضًا لغير تيودورا، أن موظفي الدولة كانوا يقسمون يمين الولاء لها كما يقسمونها لزوجها، فكانوا يقولون: "نقسم بأن نكون أوفياء صادقين في خدمة الملكين جستنيان، وتيودورا"

وكثيرًاما أنقذت تيودورا زوجها من مواقف حرجة وأخطار داهمة،

ويرجع ذلك إلى أنها كانت برغم كبريائها، وحبها للسيطرة، وإذلال الكبراء، تميل إلى الشعب، وتخطب وده. فهي قاسية مع الأقوياء والعظماء، رفيقة مع الضعفاء والمساكين. وإن من ينظر بعين مجردة عن الغرض إلى ما حدث في فتنة "نيكاس" ليدرك بلا عناء أن الشعب الذي ثار على العرش لم يقصد تيودورا، ولم يضمر لها الشر، وإذا كان بعض خصومها قد حاولوا حمل الجماهير الصاخبة على الهتاف ضدها، وتعييرها بماضيها، وقذفها بالتهم، فإنهم لم ينجحوا في ذلك إلا في نطاق ضيق جدا. وقد كان لها وحدها أكبر الفضل في استرضاء الشعب ووضع حد لثورته.

وكثيرًا ما كان نفوذ تيودورا يجاوز حدود بلادها، فتفرض كلمتها على الدول المجاورة، فيتقبلها أهل هذه الدول راضين مغتبطين.

ولم تخن تيودورا في حياتها صديقًا، بل كانت على عكس ذلك، تعفو عن الأصدقاء الذين يتخلون عنها ثم يعودون إليها نادمين تائبين.

وقد ضمنت الثروة والجاه لجميع الذين أخلصوا في خدمتها، وكان لها في ذلك جانب عظيم من البراعة والدهاء، وإن كانت في الوقت نفسه قد تفننت في محاربة خصومها والقضاء عليهم.

كانت متطرفة في حبها، كما هي متطرفة في حقدها، فإذا وثقت بإخلاص إنسان لها بذلت من أجله كل ما تستطيع بذله من عطف، ومساعدة، وحماية، وتشجيع، وإذا أساء إليها إنسان، وأدركت عزمه على مناصبتها العداء لم تتردد في اتخاذ كل وسيلة للقضاء عليه، مهما تكن منزلته، أو علاقته بالإمبراطور نفسه! وفي هذه الحالة كانت تسعى أولاً إلى

حمل الإمبراطور على سحب ثقته من خصمها؛ لكي يخلو لها الجو للانتقام منه، وتفقده كل سند يمكنه الاعتماد عليه.

وليس في هذا الجانب من خلقها وطبعها ما يبعث على الدهشة، فهى كما قلنا امرأة قبل كل شيء.

وكانت بدافع من كبريائها تحرص على أن تكون دائما صاحبة الفضل في ارتقاء كبار الموظفين وارتفاع منزلتهم، فإذا وصل أحد منهم إلى شيء من ذلك بغير علمها، أو مساعدتها سلكته في عداد خصومها، وراحت تعمل جاهدة لوضع العقبات في طريقه، ولا يهدأ بالها حتى تقيله من منصبه، أو تنقله إلى مكان بعيد، وتقصيه عن دوائر الحكم؛ لكي يدرك ويلمس أن لا سبيل إلى الأطمئنان على مركز، أو على منصب في بيزنطة خارج نطاق نفوذها، وأن تيودورا هي كل شيء في الدولة.

وكان أصدقاؤها– وما أكثرهم– يسمونها "الإمبراطورة الوفية"؛ لأن وفاءها لهم كان مثل عدائها لخصومها، لا يعرف حدًا يقف عنده. وما كانت تطلب منهم في مقابل ذلك إلا أن يخدموها بإخلاص، ويقابلوا وفاءها بوفاء مثله، وينفذوا رغباتها وأوامرها من غير أن يناقشوها، أو يترددوا في التنفيذ.

ولهذا، كان جميع البيزنطيين يتوجهون إليها برغباتهم ومطالبهم؛ لعلمهم بأن الإمبراطور قد يعجز عن إرضائهم إذا أراد ذلك، أما هي فلن تعجز عن صنع ما تريد.

وقد رأينا كيف رفعت برسيماس إلى قمة المجد، وكيف قربت إليها

"نرسيس" الخصيالذي كان خادمًا صغيرًا في القصر، جئ به من حيث لا يدرى أحد، فاختارته أول الأمر خادمًا خاصًا لها، ورفعته بذلك درجات فوق المئات من زملائه وأقرانه، وكان ذكيًا، متأنقًا، حلو الحديث، كما كان نشطًا قوي البنية، فلم تمض مدة قصيرة حتى كان موضع ثقتها التامة، وأخذت تطلعه على أسرارها، وتستخدمه في قضاء مآربها السياسية، وتعهد إليه في تنفيذ الخطط التي ترسمها في سكون مخدعها؛ للنيل من عدو، أو لاكتشاف مؤامرة.

وكان نرسيس عند حسن الظن به، فقد أخلص للإمبراطورة إخلاصًا لا حد له، ونجح في جميع ما كلفته القيام به إلى أبعد ما كانت ترجو، فأصبح في نظرها نابغة من نوابغ عصره، ورفعته إلى مصاف القادة، ووضعته على رأس قوة من الجيش، فصار منافسًا، ومزاحمًا لبليزيروس، أشهر قواد ذلك العهد على الإطلاق.

وقد أصابت تيودورا في اختيار بعض صنائعها، وأخطأت في اختيار البعض الآخر، ومن بين الذين رفعتهم وحمتهم أشخاص ليسوا أهلاً لرفعة وحماية، كذلك الحاكم الذي وضعته على رأس الإدارة في مدينة الإسكندرية، واسمه "سرجيوس" لا لسبب إلا لأنه تزوج امرأة كانت أنطونينا تحبها وتعطف عليها.

وقد كتب أحد الأساقفة المصريين في الإسكندرية عن سرجيوس، يقول:

"أن حاكمًا يمتاز بصفات خفية لا تعرفها، ولا تدركها عقولنا

الضعيفة، ويظهر أن هذا النوع من الصفات الحسنة لا يتوافر إلا في نوع من الرجال؛ أي في أولئك الذين يوفقون في زواجهم، فالإمبراطورة تيودورا اختارت لنا حاكمًا عرف كيف يختار زوجته"

وقد حكمت الإسكندرية في عهد سرجيوس امرأة: هي زوجته، وكانت هذه الزوجة تتلقى الوحي من أنطونينا وصيفة تيودورا.

والأخطاء التي ارتكبها سرجيوس في إدارة شئون الإسكندرية لا تعد ولا تحصى، وقد أوشك في مدة إقامته بالعاصمة المصرية أن يقضي على سمعة حكومة بيزنطة، وسمعة الإمبراطورة، ولولا أن جستنيان سارع بنقله لحدثت فتنة في مصر شبيهة بفتنة نيكاس في بيزنطة.

غير أن مسألة سرجيوس هذه لم تكن من المسائل المألوفة في عهد جستنيان وتيودورا. وأكثر الذين عينتهم الإمبراطورة في مناصب عالية كانوا في الواقع أهلاً لثقتها.

ومن أغرب ما حدث أنها فكرت يومًا في تعيين النساء في بعض المناصب الرفيعة، والوظائف الإدارية. وأوشكت أن توفد أنطونينا إلى بيريت –وهي مدينة بيروت الحالية– للإشراف على إعادة تنظيم شئونالمدينة، وذلك على أثر فتنة وقعت فيها.

ولكن جستنيان لم يوافقها على ذلك –برغم أنه عود زوجته ألا يعارضها في شيء– لأنه رأى في تعيين النساء في الوظائف والمناصب ابتكارا لم يحن الوقت بعد للإقدام عليه. ومما قاله لزوجته في هذا الشأن:

– لنفرض يا عزيزتي أن الحاكمة التي تريدين تعيينها باسم بيزنطة اضطرت إلى ملازمة الفراش لأنها حامل، أو لأنها وضعت مولودًا جديدًا، فماذا يحدث في مثل هذه الحالة؟. وبأية عين ينظر سكان بيريت إلى منصب الحاكم البيزنطي الذي تشغله وهي على هذه الحال؟!

وعدلت تيودورا عن فكرتها، ولكنها في الوقت نفسه كانت –وهي امرأة أيضًا– تحكم الإمبراطورية كلها بالنيابة عن زوجها الإمبراطور، ولم يرتفع أي صوت باستنكار ذلك، وقد حملت، وولدت، ولزمت الفراش، ولم يجد هو –ولا غيره– في ذلك ما يدعو إلى الدهشة.

وما أردنا أن نسجله هنا هو أن تيودورا كانت أول امرأة حكمت إمبراطورية، وفكرت في إعطاء بنات جنسها حق ممارسة الحكم بمقتضى قانون صريح.

وفي المضمار الديني، وكل ما يتعلق بالكنيسة، كان نفوذ تيودورا يشمل جميع النواحي بلا استثناء.

وهنا أيضًا عمدت الإمبراطورة إلى رفع أصدقائها إلى أعلى المناصب، وعينت صنائعها في معظم الوظائف الهامة، وقد أمتد نفوذها إلى خارج حدود الإمبراطورية الرومية، بل شمل روما أيضًا، ومقر البابا في الغرب؛ إذ عينت الأسقف "انتيموس" بطريركا على القسطنطينية، ونجحت في تعيين "فيجيليوس" في منصب بابا روما ورئيس الكنيسة، وأجلست على كرسي بطريركية الإسكندرية المصرية صديقًا آخر هو "تيودوسيوس".. وهكذا تمت لها السيطرة المطلقة على شئونالكنيسة والدين؛ أي أنها كانت تراقب

سير الإدارة، وسن القوانين، وتكييف الاتجاهات في المشاحنات المذهبية التي كان العالم المسيحي ميدانًا لها في ذلك الحين.

ومن ناحية أخرى، كانت تيودورا في الوقت نفسه تضرب بلا شفقة، ولا هوادة جميع الأشخاص الذين يتمردون عليها، أو يحاولون الإفلات من نير نفوذها. ومن هؤلاء القائد العظيم "بليزيروس", وزميله "بوتزين". فقد حلت بهما نقمة تيودورا؛ لأنهما لم يخضعا لها خضوعًا أعمى.. ومثلهما الوزير "كابادوكي"؛ لأنه نازعها السلطة في بعض الظروف الحرجة، والبابا "سيلفيروس"؛ لأنه رفض أن يجعل الكنيسة آلة في يدها.

وفي موقفها مع هؤلاء وغيرهم ممن نزعت منهم ثقتها، لم تتردد تيودورا في الالتجاء إلى أبشع الوسائل للانتقام، فقد أرادت أن يكون انتقامها من خصومها درسًا للجميع، وأن يعرف كل كبير وصغير أن أوامر الإمبراطورة يجب أن تنفذ، وأن سلطانها يجب أن يظل فوق كل سلطان، وأن من يعاكسها مصيره الهلاك.

وفهم الجميع هذا، وأدركوا أنه من الحكمة والخير لهم أن يسايروا تيودورا على طول الخط، حتى إن كان في ذلك ما يتعارض مع أوامر الإمبراطور، فقد دلت التجارب العديدة على أن رغبتها لابد من أن تنفذ في النهاية، وعلى أنها لن ترحم من يخالف رأيها.. في حين أن الإمبراطور كان دائما يتساهل، ويتغاضى، ويعفو عن كثير.. بل أن تيودورا كانت أحيانًا تعاكس علنًا رغبات الإمبراطور. حدث مرة أن أحد أعوانها المقربين وهو "جوليانوس" أحد أساقفة الإسكندرية المصريين، أبدى رغبته في أن

يذهب إلى بلاد النوبة للتبشير بالدين المسيحي، فشجعته تيودورا على القيام برحلته هذه، ووعدته بالمساعدة والتأييد. ولكن جستنيان أراد أن يعهد بهذه المهمة إلى أساقف آخرين غير جوليانوس، وأختار من بين أصدقائه وفدا للذهاب إلى ملك النوبة حاملا إليه المال والهدايا، وبعث إلى حاكم مصر العليا لكي يستعد لاستقبال الوفد، وتوفير أسباب الراحة له، وتسهيل سفره ومهمته.

فماذا صنعت تيودورا؟

أرسلت إلى الحاكم نفسه خطابًا قصيرًا جافًا حازمًا، جاء فيه ما يلي:

"أريد أن يصل رسولي الأسقف جوليانوس إلى بلاد النوبة قبل رسل الإمبراطور، وإذا لم تتخذ التدابير اللازمة لكي تبقى رسل الإمبراطور في مصر، بحيث يسبقهم جوليانوس فإن حياتك ستكون في خطر"

ووقع الحاكم المسكين في حيرة بين تعليمات الإمبراطور وتعليمات الإمبراطورة، ثم لم يسعه إلا اتخاذ الموقف الذي لا خطر فيه على حياته، فنفذ تعليمات تيودورا، وسافر رسولها فورًا ومعه حاشية كبيرة مجتازًا حدود مصر إلى بلاد النوبة. ولما وصل رسل الإمبراطور بعد ذلك إلى مصر، أطال إقامتهم بها إلى أقصى حد ممكن، بحجة أن البلاد ليس بها ركائب كافية لنقلهم إلى النوبة، بعد أن صادر وفد تيودورا تلك الركائب كلها، وأخذوها معهم إلى هناك.

وهكذا تأخر سفر وفد الإمبراطور بضعة أسابيع. ولما تيسر له السفر ووصل إلى النوبة، كان جوليانوس ورفاقه قد أدوا رسالتهم ولم يتركوا لرسل

الإمبراطور مجالاً لأي نشاط، فعادوا إلى بيزنطة خائبين.

ولا شك في أن تيودورا كافأت الحاكم على تنفيذ أوامرها دون أوامر الإمبراطور. وعلى كل حال، فإن جستنيان لم يعاقبه، ولم يحاسبه على موقفه وتحيزه للإمبراطورة، ولكنه عاتب زوجته، فطوقت عنقه بذراعيها وقالت له في دلال:

– إذا كنت قد عاكست أوامرك بأوامر مضادة لها؛ فذلك لأن مصلحة الدولة والعرش تقضي بأن تنفذ أوامري لا أوامرك.

وقبل الإمبراطور من زوجته هذا التعليل العجيب، وخارت قواه –وما أكثر ما كانت تخور!– أمام تلك المرأة التي ملكت عليه قلبه وقياده، والتي قال عنها: "أن نظرة من عينيها، وقبلة من فمها، تنسياني السلطة، والعرش، وكل شيء في الوجود"

وكان لتيودورا آراء ونظريات خاصة في الشئونالسياسية، والدبلوماسية، والإدارية على السواء. ولا شك في أنها كانت الموحية بكثير مما تضمنته مجموعة القوانين، واللوائح، والأنظمة التي عرفت باسم "قوانين جستنيان". وفي هذه القوانين مواد ونصوص تتعلق بالمرأة، وتحسين حالها، والنهوض بمستواها. وفيها أيضًا لوائح خاصة بتنظيم الشئونالإدارية وهي جديرة بأن تقارن بأحسن وأفضل اللوائح التي من هذا النوع في أرقى بلدان العالم الآن.

وكانت تيودورا ترى بنظرها الثاقب أن كيان الإمبراطورية، وهيكل الدولة مهددان بمشكلتين رئيسيتين هما: الأزمة المالية، والأزمة الدينية.

وبرغم حاجتها الملحة إلى المال، فقد كانت تشعر هي وجستنيان، بأنه ليس من الحكمة في شيء أن يرهقا الرعية بالضرائب وغيرها لملأ الخزانة؛ لأن في ذلك ما يزيد الامتعاض، ويبذر بذور التمرد والعصيان.

ومن أجل ذلك أوحت تيودورا إلى زوجها الإمبراطور بإصدار المرسوم المعروف بمرسوم ٥٣٥، نسبة إلى السنة التي صدر فيها، وهو الذي حدد فيه جستنيان واجبات الموظفين في دوائر الدولة، وحتم عليهم أن يتوخوا العدالة والإنصاف في معاملة الناس، وأن يكونوا للرعايا أخوة وآباء. ولهذا أيضًا استنكرت تيودورا أعمال الوزير كابادوكي وناصبته العداء؛ لأنه كان قاسيًا جافًا فاسد الضمير.

ولم يكن اهتمامها بالشئونالدينية يقل عن اهتمامها بالشئونالإدارية. ولكنها لم تكن على وفاق مع زوجها في هذا الشأن؛ لأن آراءها كانت تختلف عن آرائه، وخطتها غير خطته.

كان جستنيان شديد الإعجاب بعظمة الإمبراطورية الرومانية، وما تركته روما في التاريخ من آثار، وكان يحلم بإعادة تلك العظمة إلى ما كانت عليه، ويفكر في توحيد الإمبراطوريتين الغربية والشرقية، وجعل بيزنطة عاصمة لذلك الملك الهائل، وحمل الكنيسة الشرقية –ومركزها بيزنطة– والكنيسة الغربية– ومركزها روما– على نبذ الخلافات المذهبية، بحيث لا يبقى في العالم غير كنيسة واحدة في إمبراطورية واحدة فيكون هو الإمبراطور، ويكون رئيس الكنيسة –البابا– في روما، خاضعًا له حائزًا على حمايته.

أما تيودورا، فكانت ترى رأيًا آخر.

كان زوجها ينظر إلى الغرب، وكانت هي تنظر إلى الشرق.. كان جستنيان يحلم بالتوسع وبسط السلطان من ناحية أوربا، وكانت هى تحلم بالتوسع وبسط السلطان من ناحية آسيا وأفريقيا.

كان جستنيان يمني النفس بإعادة الإمبراطورية "الرومانية الغربية"، بينما كانت تيودورا تمني النفس بتدعيم الإمبراطورية "الرومية الشرقية".

وكانت مصر، وسورية، والولايات الآسيوية التابعة لبيزنطة هي الدرر التي ترغب تيودورا في الاحتفاظ بها؛ لأنها تشعر بأن فيها كوامن الحياة والقوة لإمبراطورية فتية تضرب صفحًا عن الماضي وتسير في طريق جديد.

وفي عبارة موجزة، كان جستنيان يريد إحياء الماضي، وكانت تيودورا تريد تشييد مستقبل على أنقاض ذلك الماضي.

وحينما كانت تيودورا تخلو إلى نفسها، وتنصرف إلى البحث والدرس، كانت تدرك بفطنتها وذكائها أن الخلافات الدينية لا يمكن إزالتها بين الشرق والغرب، وأن الأساقفة والرؤساء الروحيين في البلدان الشرقية يختلفون في تفكيرهم عن زملائهم في الغرب.. وكانت تدرك أيضًا أن الروح الوطنية، والنزعة القومية لهما أثر بعيد في تكييف العلاقات بين الشعوب الشرقية المسيحية، ومركز الرئاسة الدينية في روما.

وقد أدركت تيودورا أن أساقفة الشرق يبغون الانفصال عن روما، ورأت هي في ذلك الانفصال تدعيما للإمبراطورية الرومية، فقررت أن تضحي بروما من أجل الكنيسة الشرقية، أما زوجها جستنيان فكان على نقيض ذلك يؤثر التضحية بالكنيسة الشرقية من أجل روما.

ويتضح لنا الآن أن تيودورا كانت أبعد نظرًا، وأعمق تفكيرًا،وأصدق فراسة من زوجها الإمبراطور.

وقد ظلت طول حياتها منصرفة إلى معالجة الخلافات الدينية، وعاملة في سبيل حلها بطريقة ترضي أصدقاءها أسقفة الكنيسة الشرقية، وظلت في الوقت نفسه تضع نصب عينيها المسائل السياسية؛لأن السياسة والدين في نظرها مرتبطان؛ ولأنها كانت ترى أن الصراع بين المذاهب الشرقية والغربية ليس إلا صراعًا سياسيًا بين الشرق والغرب، أكثر مما هو صراع ديني.

وكان زوجها خياليًا في تكهناته، وآماله، وأحلامه. أما هي فكانت واقعية عملية. وقد رأت لذلك أنه خير لها وللإمبراطور أن يؤيدا الأساقفة الانفصاليين الذين كانت روما تنظر إليهم بوصفهم هراطقة خارجين على مبادئ الإيمان المسيحي الصحيح، وتلك المشاحنات الدينية هي التي انتهت فيما بعد بالانفصال التام بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الغربية، وبين الكنيسة الأورثوذكسية الشرقية، ولا تزال الكنيستان إلى الآن منفصلتين. ولسنا هنا في مجال الخوض في بحث ديني لتبيان الفوارق بين المذهبين.

وفي عهد تيودورا، كان الأساقفة في الشرق لا يزالون منقسمين إلى حزبين، ولم تكن الكنيسة الأورثوذكسية قد كونت نفسها بعد تكوينًا تامًا كاملاً.

وانتهى الأمر بأن نجحت الإمبراطورة في إقناع زوجها بأن يقف معها

جنبًا إلى جنب في تأييد الأساقفة المنشقين، ثم اندفعت في تأييدها لهؤلاء الأساقفة، ولم يتطرق إليها الوهن حتى آخر لحظة من حياتها، وتجلت في هذا العراك مواهبها السياسية، كما تجلت أيضًا قدرتها كامرأة ذات عواطف عنيفة ملتهبة،

كانت جريئة إلى أبعد حدود الجرأة، فقد اعتقلت البابا وخلعته عن عرشه وعينت بدله في مكانه. وشملت بحمايتها الأساقفة المنشقين على روما، ووفرت لهم الوسائل اللازمة لإنشاء كنيسة مستقلة، وتنظيمها والتبشير بها, وفرضت سياستها فرضًا على عظماء المملكة، كما فرضتها على الإمبراطور نفسه.

وكانت على جانب عظيم من اللباقة في رعاية مصالح الأسرة المالكة، والقيام بدورها كشريكة للإمبراطور في تحمل أعباء الملك وصيانة العرش. فكانت تستقبل السفراء مثل زوجها، وكان السفراء يعرفون مقامها ونفوذها، فيتقربون إليها ويخطبون ودها.

ووثقت العلاقات من بعيد بينها وبين الأباطرة والملوك، فكانت تراسلهم، وكانوا من ناحيتهم يبالغون في توجيه آيات الثناء إليها، لعلمهم بأنها دائمة التلهف إلى سماعها، وهكذا وصلت تيودورا شيئًا فشيئًا إلى إيجاد شبكة من الاتصالات السرية مع كثيرين من ملوك الغرب والشرق، وجرت بينها وبينهم مخابرات ومساومات سياسية بغير علم الإمبراطور.

وكان جميع الرسل الذين يوفدهم جستنيان إلى الخارج؛ لمقابلة الملوك، أو لعقد معاهدات، أو لحمل هدايا، من صنائع تيودورا. فهي التي كانت

تختارهم وتقدمهم لزوجها.

وجه جستنيان مرة الإنذارًا إلى "تيودات" ملك القوط في إيطاليا، فحمل الإنذار إليه القائد "بطرس" الذي اختارته تيودورا. وبعد أن سلم الرسول الإنذار، طلب من الملك القوطي أن يبعث بالرد إلى جستنيان بواسطة تيودورا.

وظنت الإمبراطورة مرة أن ابنة الملك "تيودوريك" الحسناء الفاتنة "أمالاسونتا" تميل إلى زوجها جستنيان، وتخطب وده من بعيد. وخشيت أن يتحول ذلك الميل إلى علاقة غرامية بين الأميرة الجميلة، والزوج الخاضع لإرادة زوجته، فسعت للإيقاع بها... ويقال أنها أرسلت من يدس لها السم في الطعام، ولا يستبعد أن يكون هذا صحيحًا،فإن تيودورا كانت لا تتردد أمام وسيلة للتخلص ممن تكرههم،أو تخشاهم، أو توجس شرًا من مزاحمتهم.

ولما ماتت أمالاسونتا وبلغ تيودورا خبر موتها، قالت لوصيفاتها الجالسات حولها: "خير لها أن تموت اليوم من أن تقتل غدًا"

وكتب مرة وزير كسرى إلى وزير القصر في بيزنطة يعرض عليه اتفاقًا بين الدولتين حول مسألة مختلف عليها، وعلمت تيودورا بخبر هذه المراسلة، فكتبت مباشرة إلى الوزير الفارسي تقول: "أعلم أيها الوزير أن زوجي الإمبراطور لا يقرر شيئًا بغير علمي، ولا يقطع خيطًا بدون استشارتي"

ولابد من الإشارة هنا إلى أن سيطرة تيودورا على زوجها إلى هذا الحد لم تكن دائمًا مدعاة للارتياح ومجلبة للخير، فقد وقعت في أخطاء يغلب

على الظن أن الإمبراطور ما كان ليقع فيها لو أن الأمر كله كان في يده. وكان ملوك الدول المجاورة يسخرون من وقت لآخر من تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف التي تحكمها امرأة.

وفي الحق أن تيودورا كانت بارعة ماهرة، ولكنها قبل ذلك وبعده كانت امرأة، فيها ما في معظم النساء من ضعف وعيب. ولهذا فإن اندفاعها في بعض الظروف والمناسبات، وتطرفها، وحقدها، وتغليب العاطفة على العقل، كل ذلك أحدث للأسرة المالكة، وللعرش في بيزنطة هزات عنيفة.

ومن عيوب تيودورا أنها كانت شديدة الوفاء لأهلها وأفراد أسرتها، وكثيرًا ما أضرت بالمصلحة العامة لإرضاء مصلحتهم الخاصة، وهذا ما نسميه الآن "المحسوبية": وهو استغلال السلطة والنفوذ لخدمة الآل والأقرباء على حساب الدولة والأمة. وتيودورا لم تسلم من هذا العيب.

ولكن، من هى أسرة تيودورا، وما هو مصير أفرادها؟ إن أختها كوميتو، التي كانت تحبها حبًا جمًا، والتي بقيت بالقرب منها دائما، تزوجت القائد "سيتاس"، وهو من صنائع الإمبراطور، وأصدقائه الأوفياء. وتيودورا هي التي مهدت السبيل لهذا الزواج، وقد جمع سيتاس وزوجته ثروة طائلة، مستغلين في ذلك نفوذ تيودورا وسلطتها.

وأرادت الإمبراطورة أن تضمن مستقبل حفيدها، فبحثت له عن زوجة في داخل القصر، ووقع اختيارها على ابنة القائد بليزيروس، وهي وحيدته ووريثته، وقد رأت الإمبراطورة في هذا الزواج وسيلة لاستيلاء

حفيدها على ثروة بليزيروس الهائلة بعد موته، ولكن الزواج لم يتم؛ لأن القائد لم يوافق عليه، فحقدت تيودورا على الفتاة وعلى أبيها. أما حفيدها، فقد ساعدته بنفوذها فأصبح فيما بعد من رجال الحاشية، ومن أغنى أغنياء بيزنطة.

وعنيت بابنة أختها، الفتاة "صوفيا" الجميلة. فاختارت لها زوجًا من الأسرة المالكة. ولم يكن ذلك الزوج غير "جستين" ابن أخى الإمبراطور جستنيان وولى عهده. أى أن تيودورا دبرت الأمور بحيث تصبح أبنة أختها في المستقبل إمبراطورة على بيزنطة، وتحتل مكانها على العرش.

وجاءت بخالها "تيودورس" شقيق أمها، وحارس الدببة في الملعب، وعينته عضوًا في مجلس الشيوخ، ثم أنعمت عليه بلقب نبيل، واختارته رئيسًا للمجلس.

وقد عهدت إلى هذا الرجل قيادة فريق الجيش، في الحرب ضد الفرس، وظل يعد من أقرب المستشارين إلى الإمبراطور إلى أن زهد في الدنيا، ودخل دير "كورا"، حيث ترهب وانصرف إلى العبادة.

هؤلاء هم أقرب أهل تيودورا إليها، أما بقيتهم فقد جاءوا إليها من تلقاء أنفسهم، أو بعثت هي في طلبهم، فعينت الشبان منهم في وظائف مناسبة، واختارت للفتيات أزواجًا أغنياء. وهكذا لم تهمل الإمبراطورة أحدًا من أهلها، بل سعت لإسعادهم جميعا.

وهذا وفاء، أو محاباة حسب العين التي ينظر بها المرء إلى خدمة الأهل، وتوفير الراحة، أو الجاه، أو الثروة لهم.

ولكن قلب تيودورا كان يمزقه الحزن والأسى، كلما فكرت في المستقبل.

لم يكن لها ولد، وعبثًا حاولت أن تلد للإمبراطور وليًا للعهد. وهذه الخيبة كانت تدمي فؤادها، وتنغص عيشها، هل حكم عليها أن تموت من غير أن يكون هناك من يرث عنها العرش، ومن غير أن تضمن أن الإمبراطور القادم هو ابنها، من لحمها ودمها؟

هل قدر لها أن ترفع الإمبراطورية إلى أوج المجد، لكي ينتقل ذلك المجد من بعدها، ومن بعد زوجها إلى وريث غريب عنها، وإن كان قريبا للإمبراطور زوجها؟

زار القسطنطينية في سنة ٥٣٠م الناسك المشهور "سابا" الذي أصبح فيما بعد قديسًا، وقابله الشعب بمظاهر الحفاوة والإجلال، فهو راهب صالح معروف بمكرماته وتقواه. وأهل فلسطين–حيث كان يعيش في صومعة بين الجبال– يحترمونه ويعتقدون أن دعاءه مستجاب.

وذهب الإمبراطور والإمبراطورة لزيارته، وركعا أمامه، وقبلا طرف ردائه، وطلبا منه أن يمنحهما بركته، ويصلي من أجلهما،فباركهما القديس ووعدهما بالصلاة.

وقال له الإمبراطور:

– هل لك يا أبتاه أن تدعو الله عز وجل أن يمن على الإمبراطورة بمولود، يكون لنا تعزية وسلوى، ويرث العرش من بعدنا؟

فصاح القديس في وجهه:

– كلا.. لن أطلب للإمبراطورة شيئًا من هذا، ولو ولدت ابنًا، لجاء ذلك الابن عدوًا للكنيسة مثل أمه.

إن القديس سابا لم يكن راضيًا عن الإمبراطورة بسبب نشاطها في الحقل الديني.

وقد بكت تيودورا عند سماعها جواب الناسك، وقيل أنها ظلت تذكر ذلك حتى ساعة موتها، ولكنها لم تحقد على القديس، ولم تجرؤ على مناصبته العداء؛ لأنها أدركت أنها لو فعلت ذلك لأثارت فتنة في الأرض المقدسة بسبب مكانة القديس في نفوس السكان.

وهكذا حرمت تيودورا من البنين. ولم تتألم من شيء في حياتها مثلما تألمت لهذا العقم الذي جرح كبرياءها أمام الناس، وكلما قال لها زوجها أنه راضٍ به ولا يطلب لنفسه وريثًا، كانت تجيبه:

– في هذه المرة، أنت تكذب عليّ.. فلا يوجد في العالم زوج واحد لا يريد أن يكون أبًا، ولا يوجد فيه ملك لا يريد أن يكون له ولي عهد.

غير أن هذا العقم الذي لازم تيودورا بعد زواجها لم يؤثر في علاقتها بالإمبراطور زوجها، فقد رضى به فعلا، وهي التي لم تكن راضية.

ومهما تكن عيوب تيودورا وأخطاؤها، فإنها طبعت ذلك العهد بطابعها، ولا يمكن أن يذكر جستنيان من غير أن تذكر زوجته معه. بل العكس هو الممكن، فقد يذكر عهد "تيودورا من غير أن يذكر معه اسم الزوج الذي رفعها وجعلها شريكته في الملك".

وقد ماتت تيودورا قبل زوجها، ومنذ اليوم الذي اختفت فيه صورتها من مسرح السياسة البيزنطية، بدأت مرحلة الفوضى والانحلال. فقد بقى العرش، وبقيت الدولة، وبقيت الحاشية والحكومة. ولكن المحرك لهؤلاء جميعا توقف عن العمل، أما الإمبراطور، فقد أدركته الشيخوخة، وأدركه التعب والعناء، وأنهكته المسئولية قبل الأوان.

امرأة لها تاريخ

وصف المؤرخ بروكوبس الإمبراطورة تيودورا بأنها كانت شديدة العطف، واسعة التسامح مع النساء الخاطئات.

وليس في هذا ما يدعو إلى العجب، فهي امرأة قبل كل شيء، ثم هي قد عرفت الخطيئة وسقطت في هوة الفجور والفساد قبل أن تشب عن الطوق. وكانت ذكية، ثاقبة الفكر، بعيدة النظر، تدرك أن المرأة ضعيفة الإرادة، وأن الظروف كثيرًا ما تضطرها إلى الجنوح عن الطريق المستقيم.

وفي ذلك العهد، كان المستوى الخلقي في القسطنطينية منحطًا تمام الإنحطاط. فالأسر التي يخيم عليها الوئام وتسمو فيها الفضائل، قليلة نادرة. وحوادث الخيانات بين الأزواج كثيرة لا حصر لها. والناس يقدمون على الرذيلة من غير أن يفكروا فيما تنطوي عليه من عيب وعار.

فأي عجب في أن تجد الخطيئة في ذلك العصر من يسترها ويحميها في شخص الإمبراطورة التي جرفتها الخطيئة قبل أن تجلس على العرش؟

إن كثيرات من الزوجات الخاطئات، كن يلجأن إليها كلما انكشف

أمرهن، وعلم أزواجهن بما اقترفن من خيانات، وكانت هي حريصة على أن تحميهن، وتقدم لكل منهن من المساعدات ما يمكنها من الخروج من المأزق الذي زجت بنفسها فيه.. فالخيانات الزوجية لم تكن من الأمور التي تدهش تيودورا أو تثير استنكارها.. ولم تكن تسمح لأي زوج بأن يقدم على تطليق زوجته إلا إذا قدم الأدلة القاطعة على أنه محق في هذا الطلب، وأن زوجته مذنبة خاطئة.. فإذا اتضح أنه تجنى على زوجته، أو إذا لم يستطع تقديم تلك الأدلة القاطعة على خيانتها، فأقل جزاء له على ذلك أن يحكم عليه بأن يدفع لزوجته تعويضًا يعادل البائنة التي جاءته بها يوم الزواج، وقد يضاف إلى هذه العقوبة عقوبة الضرب، أو الجلد.

كانت الزوجات في عصر تيودورا لا خوف عليهن من أي تصرف خاطئ في حق أزواجهن، فإذا حدث أن خانت إحداهن زوجها، فالإمبراطورة سرعان ما تنقذها بأية وسيلة من الوسائل.. أما الزوج الذي يخون زوجته فلم يكن هناك أى سبيل إلى إنقاذه من العقاب.

وعلى هذا، كان أكثر الأزواج في عهد تيودورا لا يجدون بدًا من السكوت على خيانة زوجاتهم؛ إذ يرون أن التغاضي، والتسامح أسلم عاقبة من الشكوى والاستنكار.

وقد كان لعطف تيودورا على النساء الخائنات، ومساعداتها لهن ولعشاقهن ضد الأزواج الغيورين، أكبر الأثر في تفشى الفساد، وانتشاره في جميع أوساط الشعب، الرفيعة، والوضيعة على السواء.

وكان لابد أن يؤدي هذا إلى تفكك روابط الأسرة. على أننا حين

نلقي نظرة على ما كان يجري داخل القصر المقدس، من خلال الوثائق العديدة التي وصلت إلينا عن ذلك العصر، فإننا نقف مشدوهين أمام التناقض الظاهر بين موقف تيودورا من سلوك النساء في الخارج، والتظاهر بالتقوى والغيرة على الفضيلة في داخل القصر.

لقد كان الإمبراطور جستنيان هو الذي وضع تلك القوانين الخاصة بالزواج، والطلاق، والخيانة الزوجية، وفي كل مادة من مواد تلك القوانين، تتردد عبارات متشابهة: "حسن السيرة– حسن السلوك– الأخلاق الكريمة– الصدق والنبل– شرف الأسرة" إلى آخر ما هنالك من عبارات تدل على تمسك الإمبراطور بأهداب الفضيلة، ورغبته في أن يتمسك بها رعاياه، وقد كتب جستنيان معلقًا على تلك القوانين فقال: "أننا بهذه القوانين إنما نريد أن تسلك النساء مسلكًا مشبعًا بالحكمة والرزانة، وألا يقدمن على ما يتنافى مع الشرف والتقوى، ونأمل ألا يكون ذلك صعبًا عليهن، وأن ينتصرن على الرذيلة بلا عناء".

ولكن، ما هي الأمور التي يراها الإمبراطور منافية للآداب، ويطلب من النساء تجنبها؟

لقد كان من بين هذه الأمور ألا تخرج امرأة للاستحمام مع رجل غير زوجها، فإذا هي فعلت ذلك، واستطاع زوجها أن يقدم الأدلة التي تثبته، كان من حقه أن يطلب الطلاق من زوجته.

كذلك كان من حق الزوج أن يطلب الطلاق إذا خرجت زوجته بغير علمه لتتناول العشاء مع رجل غريب. وإذا ذهبت إلى دور التمثيل،

وحفلات السباق، ومصارعة الحيوانات، من غير أن تستأذن من زوجها.

ولا غرابة في أن ينص القانون أيضًا على أن للرجل الحق في الحصول على الطلاق، إذا قضت زوجته ليلة خارج بيت الزوجية، أو حاولت أن تجد لنفسها زوجًا آخر أثناء حياة زوجها.

وفي حالة اتخاذ الزوجة عشيقا لها، كان لزوجها بحكم تلك القوانين التي وضعها جستنيان أن ينتقم لنفسه بنفسه، ولكن بعد أن ينذر زوجته ثلاث مرات بأن تهجر عشيقها، ثم يقدمها للمحاكمة، ويقدم الأدلة التي تثبت قيامه بتلك الإنذارات، كما يثبت أنه ضبط زوجته مع عشيقها في أي بيت، أو كنيسة، أو في أحد الملاهي أو المقاهي، أو في ضاحية من الضواحي.

وقد يحكم على العشيق بالإعدام، وتعاد الزوجة إلى زوجها لتحاكم بدورها على حدة، ثم تأمر المحكمة بإرسالها إلى الدير؛ لكي تبقى فيه سنتين على الأقل، وبعدئذ تعود إلى زوجها إذا وافق على ذلك، أو تصبح راهبة تقضي بقية عمرها بين جدران الدير.

وهذه القوانين كانت تعفي من العقاب كل زوج يقتص بنفسه من زوجته الخائنة وعشيقها، إذا فاجأهما معا في حالة مريبة.

وكان جستنيان يقول عن الزواج: "أنه رباط مقدس يجب المحافظة عليه وصيانته من الدنس، وأن الزواج يجب أن يدوم ويصبح غير قابل للانفصام"

وتدلنا أعمال هذا الإمبراطور على أنه كان دائمًا شديد الاهتمام بكل ما يتعلق بالزواج، وإبقاء الوئام قائمًا بين الأزواج من رعاياه.

وكان يحرم الطلاق بلا سبب معقول يبرر الرغبة من الزوجين أحدهما أو كليهما في الحصول عليه، فلابد من أن يكون أحدهما قد أساء إلى الآخر لكي تنظر المحكمة في القصية، أما إذا تقدم إليها زوجان وطلبا الحكم لهما بالطلاق من غير أن يقدما لذلك سببا غير رغبتهما المشتركة في الانفصال، فإن طلبهما يرفض ولا يؤخذ به.

ذلك لأن جستنيان كان لا يرضى بأن يقدم زوجان على الطلاق، لأنهما على خلاف في الرأى، أو لأن طباعهما غير متشابهة، ولا يرضى بأن يكون لزوجة الجندى الحق في طلب الطلاق؛ لأن زوجها يقضي شطرًا من عمره بعيدًا عنها، وإذا أرادت أرملة جندي أن تتزوج، فعليها أن تثبت بالأدلة الملموسة أن زوجها قتل في الميدان.

وقوانين جستنيان –وهي مشهورة معروفة– تنص على عقوبات صارمة ضد الذين يخترعون أسبابًا وهمية لفصم عري الزواج، رغبة منهم في الانصراف إلى حياة اللهو.

ولم يكن ذلك الإمبراطور يبدى تساهلاً في هذا الشأن إلا في حالة واحدة، رغبة الزوج أو الزوجة في الترهب، ودخول الدير.. ففى هذه الحالة فقط، يحق لأحد الطرفين أن يتقدم بطلب الطلاق. على أن خيانة عهد الرهبنة، في نظر جستنيان لم تكن تقل جرمًا عن خيانة عهد الزواج، فإذا ثبت أن أحد الزوجين غادر الدير بعد حصوله على الطلاق، فإن عقابه

يكون هو الإعدام، أو السجن المؤبد على الأقل.

غير أن القوانين ونصوصها شيء، وتنفيذ النصوص وتطبيقها شيء آخر. ففي جميع العصور كانت الأغراض الشخصية، والأيدي الخفية تتلاعب في التطبيق على حساب النصوص، وهذا ما حدث في عهد جستنيان وتيودورا. فكانت هي تسهل التسامح مع الزوجات الخائنات، في حين كان هو يتغاضى أحيانا عن خطايا الرجال المتزوجين.

وإذا تصفحنا دقائق التاريخ وخفاياه في ذلك العصر، يتضح لنا بلا عناء أن حقوق المرأة كانت مصونة بمقتضى القوانين على الأقل. فإن هذه القوانين كانت تحميها من تعسف الرجل واضطهاده، وكان لها الحق في أن تطلب الطلاق في حالات معينة، منها خيانة الزوج أو إخلاله بواجباته عامة، فإذا دفع رجل زوجته إلى الرذيلة يحق لها أن تطلب الانفصال عنه.

وكان القانون يحول دون اتهامها زورًا وبهتانًا بأنها ارتكبت عملاً منافيا للآداب. فالمحكمة تطلب أدلة قاطعة، وشهود إثبات لا يتطرق الشك في صدق قولهم. وإذا ثبت لها أن الزوج غير محق في طلب الطلاق، فإنها في هذه الحالة تعطي المرأة هذا الحق إذا أرادت، ويصدر الحكم لصالحها، ويحكم على الزوج بدفع غرامة مالية فادحة.

ولا يحق للزوج أن يضرب زوجته إلا لأسباب شرعية، وقد حددت قوانين جستنيان تلك الحالات التي يحق فيها للزوج أن يضرب زوجته.

وهذه القوانين حرمت على الزوج أن يطرد زوجته من البيت مهما تكن الأسباب؛ إذ عليه قبل ذلك أن يرفع أمره إلى القضاء، وينتظر ما

يحكم به لينفذه.. فإذا طرد زوجته وقضت خارج البيت ليلة أو أكثر من ليلة، ثم اتضح أنها كانت في رفقة عشيق، فإن مسئولية هذا يتحملها الزوج، وإذا وضعت سفاحًا فالزوج هو المسئول ولا حق له في إنكار بنوة المولود.

وهكذا كان جستنيان شديد العناية بالمحافظة على سلامة الأسرة، ولكن الضعف البشري حمله–كما حمل زوجته– على التسامح وغض النظر، بل على التحيز والمحاباة في بعض الأحيان.

كان الضابط الأرمني "أرطبان" ينتمى إلى أسرة نبيلة، فهو من سلالة ملكية، وقد جاء إلى بيزنطة، والتحق بجيشها، وهناك أحرز شهرة واسعة، ومكانة مرموقة.

ثم حدث بينما كان يحارب مع الجيش البيزنطي في أفريقيا أن أنقذ زوجة ضابط كبير يدعى "أريوبندوس" من أيدي الثوار الذين قتلوه وأسروها، ثم أحاط أرطبان الأرملة بعنايته ورعايته، مدفوعًا بعاطفة إنسانية نبيلة، ومؤملاً في الوقت نفسه أن يجني فائدة لنفسه؛ لأن تلك الزوجة المترملة لم تكن غير "بريجكتا" ابنة أخى الإمبراطور جستنيان.

وصدق ظن الضابط الأرمني، فإن "بريجكتا" النبيلة اعترفت بجميله، وصرحت بأنها لن ترفض له طلبًا أيًّا كان، ثم أغدقت عليه المال والهبات.. وتوثقت العلاقات بينهما فوعدته بالزواج، فسكر "أرطبان" بنشوة الآمال، ورأى نفسه يوشك أن يكون من أولئك الذين يمكن أن يجلسوا على العرش؛ لأن الإمبراطور ليس له أبناء يرثون عرشه من بعده، ولا يبعد إذن

أن يئول إلى "بريجكتا"، ويشاركها فيه زوجها المحظوظ.

وحينما عادت بريجكتا إلى بيزنطة، قصت على الإمبراطور ما حدث لها بالتفصيل، وذكرت له أنها مدينة بحياتها، وشرفها، وحريتها لذلك الضابط الأرمني الشجاع النبيل، ثم طلبت منه أن يسمح له بالعودة إلى بيزنطة، فأجاب الإمبراطور طلبها بلا تردد.

وفي مقابلة أخرى لعمها الإمبراطور، صرحت له برغبتها أن تتخذ من الضابط الذي أنقذها زوجًا، بعد أن فقدت زوجها في إيطاليا، فوافق الإمبراطور كذلك على رغبتها، وعينه قائدًا لكتائب المتطوعين الأجانب؛ ليقرب الشقة ويزيل الفوارق بينهما، ثم عينه مديرا للجيش المرابط، ورفعه إلى مرتبة قنصل.

ولكن حدث ما لم يكن في حسبان أرطبان، فهددت فجأة بالفشل تلك الخطة التي رسمها لمستقبله، بعد أن ابتسم له الحظ، فأيدتها "بريجكتا" بقبولها الزواج منه، وأيدها الإمبراطور نفسه من حيث لا يشعر، بموافقته على هذا الزواج.

لقد نسى الضابط الأرمني –أو تناسى– أنه متزوج، وأنه ترك زوجته في أرمينيا.. وفيما هو يعد العدة لزواجه الجديد السعيد بالأميرة "بريجكتا" ابنة أخي الإمبراطور ووارثة عرشه عما قريب، فوجئ المسكين بوصول زوجته الأرمنية المهجورة إلى بيزنطة، وما لبثت هذه أن وقفت على نبأ الزواج الباطل المنتظر، فسارعت بشكواها إلى الإمبراطورة تيودورا، حيث وجدت منها كل عطف ومساعدة، وأكدت لها أن قدسية الزواج فوق كل

اعتبار، وأنه لا سبيل إلى حصول زوجها على الطلاق منها لكي يتزوج أخرى، مهما كانت هذه الزوجة الجديدة.

والواقع أن تيودورا لم تكن راضية في قرارة نفسها عن زواج أرطبان الأرمني بابنة أخي الإمبراطور؛ لأنها كانت تكره أن تجلس هذه على العرش من بعدها.

وهكذا أرغمت الإمبراطورة "أرطبان" على العودة إلى زوجته، كما أرغمت "بريجكتا" على الاقتران برجل آخر، اختارته هي لها؛ لكي تقطع عليها وعلى حبيبها كل سبيل لبلوغ العرش من بعدها.

وهذه الحادثة تدل دلالة واضحة على أن تيودورا كانت –مثل زوجها– حريصة على سلامة الأسر أيضًا، وإن كانت من وقت لآخر تتحيز للنساء ضد الرجال. بل أن هذه الحادثة قد تعد أيضًا تحيزًا للمرأة؛ إذ أن تيودورا وقفت في صف الزوجة المهجورة وحالت دون وقوع غبن عليها.

وهناك حوادث أخرى تلقي ضوءًا على آراء تيودورا وأعمالها فيما يتعلق بالمرأة وحسن سلوكها. فقد حدث مرة أن فقدت شقيقتان من أسرة كبيرة زوجيهما في آن واحد، وكانتا جميلتين غنيتين، تحبان اللهو وتميلان إلى الحياة الحرة من كل قيد، فانصرفت كل منهما إلى الانغماس في الملذات.

ولكن تماديهما في هذا المسلك الشائن، أطلق الألسنة بالنقد اللاذع، وكانت تيودورا تحبهما، وتعطف عليهما، وترجو لهما الخير والسعادة. فساءها أن تصبح سيرتهما مضغة في الأفواه، فنصحت لهما أولاً بالعدول عن سيرتهما، ولما لم تجد منهما استجابة للنصح، قررت أن تربطهما بزواج

جديد، واختارت لهما بنفسها رجلين من معارفها، ولكنهما من بيئة أقل من بيئتهما النبيلة. وقد رفضت الأرملتان النبيلتان تحقيق رغبة الإمبراطورة، وهربتا ليلاً ملتجئتين إلى كنيسة آيا صوفيا للاحتماء فيها. ولكن تيودورا لم تتراجع، وظلت تلاحقهما حتى أكرهتهما على التسليم، ثم بالغت في النكاية بهما بعد خروجهما من الكنيسة؛ إذ رفضت بشدة زواجهما من اثنين من النبلاء تقدما بهذا الطلب؛ إنقاذا لهما من الزواج الآخر غير المتكافئ فيما يعتقدان، ولم تمض أيام حتى تم زواج النبيلتين من الرجلين الخاملين اللذين اختارتهما هي بنفسها.

على أن تيودورا ندمت على ذلك فيما بعد، وهالها أن تكون قد أساءت إلى صديقتين أحبتهما وشملتهما بعطفها، فسعت لدى الإمبراطور حتى عين زوجيهما في منصبين كبيرين، وأغدق عليهما هباته وعطاياه.

عندئذ رضى الجميع بهذا الحل الموفق السعيد.

لقد كانت الإمبراطورة تيودورا عنيدة متشبثة بآرائها، لا ترجع عن أمر تقرره. ولكنها في ذلك كانت تخدم سياستها، وتعنى دائمًا بأن تحيط نفسها بالأصدقاء الأوفياء، والأنصار المخلصين، وقد حملها ذلك على التدخل أحيانًا في شئونعائلية خاصة، لم يكن لها حق التدخل فيها. وانتقدها معاصروها لأنها كانت تعقد زواج الناس أو تفضه بمثل العناد الذي تصرف به شأنًا من شئون الدولة، وكانت تربط وتحل الروابط الزوجية، حسب هواها، وأحيانًا من غير أن تستشير أصحاب الشأن أنفسهم؛ أي الأزواج والزوجات، الذين تتصرف في مصيرهم من حيث لا يشعرون.

لكن تيودورا لم تفعل ذلك مدفوعة بأهوائها وحدها، بل أن كل عمل

أقدمت عليه من هذا القبيل، كان مدروسًا بدقة، وكانت الإمبراطورة الداهية ترمى من ورائه إلى هدف سياسي معين. فاختيارها ذلك الزوج الذي أرغمت "بريجكتا" على قبوله، كان يرمى إلى هدف بعيد.. هو أن ذلك الزوج الذي اختارته لابنة أخي الإمبراطور لم يكن غير ابن أخي "هيباتوس" الذي نادى به الثوار إمبراطورا لبضعة أيام في ثورة نيكاس.. فهذا الزواج إذن من شأنه أن يضمن في المستقبل ولاء تلك الأسرة للعرش، فلا تحدث أحدًا من أفرادها نفسه بأن يقدم على ثورة جديدة في البلاد.

ولأسباب سياسية أيضًا، شملت تيودورا بحمايتها الحسناء أنطونينا، وتحزبت لها ضد زوجها بليزيروس، ثم ارغمتها على العودة إليه.

ولم تكن الامبراطورة تحسب حسابًا للعوامل الأدبية والخلقية، ما دامت مصلحتها السياسية في إحدى كفتي الميزان.. فهي شريفة، نبيلة، صادقة، طيبة القلب، ما دامت تلك المصالح مصونة. أما إذا هدد الخطر تلك المصالح، فإن هذه الصفات كلها توضع على الرف.

وكذلك كان الشأن، إذا كانت مصالح أسرة الامبراطورة، أو مصالح أصدقائها في خطر. وقد رأينا كيف زوجت أختها "كويتو"، وابنة أختها "صوفيا"؟ وكيف زوجت ابنة أختها كريزومالو من شاب انتزعته انتزاعًا من خطيبته؟ واسم هذا الشاب "ساتورنيوس": وهو ابن "هرموجينوس" رئيس التشريفات في القصر.

كان ساتورنيوس يحب فتاة من بنات أسرته، توافرت فيها جميع الصفات والمزايا التي يرغب الشاب أن تكون متوافرة في زوجته المقبلة، وقد خطبها له أبوه، وحدد يوم الزواج.. ولكن تيودورا تدخلت في آخر

لحظة، ليتزوج ابنة أختها. وكان أن تم لها ما أرادت فعقد الزواج فورا.

وفي اليوم التالي لزواجه، أسَرَّ ساتورنيوس إلى أصدقائه بأن الفتاة التي أرغموه على زواجها لم تكن تلك الفتاة الطاهرة النقية التي وصفوها له، ثم أضاف إلى ذلك أنه سيسعى في طلب الطلاق.

وكانت كلماته هذه وبالأًعليه، فقد أمرت تيودورا بالقبض عليه، وقالت له بعد جلده بالسياط:

"تعلم يا بني كيف تحفظ لسانك في المستقبل، فلا تتفوه بكلمات تسيء إلى سمعة الفتيات الشريفات وبنات الأسر النبيلة"

وقالت للذين تشفعوا لديها لكي تعفو عنه:

"إنه ثرثار.. والثرثرة تستوجب العقاب"

ولزم ساتورنيوس الصمت بعد ذلك الدرس المؤلم، بل أنه انطلق يقسم مؤكدًا أن امرأته مثال النبل، والطهر، والعفاف.

والواقع أن تيودورا فيما يختص بالأزواج والزوجات الذين تدخلت في حياتهم الخاصة كانت تبدو عادلة حينًا وغير عادلة حينًا آخر، ولكنها في كل هذه الحوادث كانت تتصرف طبقًا لما تقتضيه مصلحتها الخاصة، وقد نجحت في بلوغ هذه الغاية كل النجاح.

وهناك في هذه الحوادث ظاهرة تلفت النظر، هي أن تيودورا حرصت فيها جميعًا على أن تثبت أنها امرأة قبل كل شيء، فهي تؤثر مصلحة الزوجة على مصلحة الرجل، وترغم الزوج على قبول رغبة زوجته وتنفيذ إرادتها، وتحاول دائمًا أن تجعل الزوجة "ترضى" بما تريد فرضه عليها، لا أن تجعلها "ترضخ" مرغمة.

وهذه الظاهرة تبدو بوضوح وجلاء في القوانين التي حملت تيودورا زوجها الامبراطور على سنها لمصلحة الممثلين والممثلات، والراقصات، والنساء الساقطات.

لقد كانت تعرف حق المعرفة ما يجري في البيئات المنحطة، والأوساط الموبوءة، وما في محيط الملعب من أعمال، وحوادث، وفواجع يندى لها جبين الفضيلة خجلاً.. فهي قبل أن تجلس على العرش، انغمست في لجة ذلك المحيط، وعاشرت جميع تلك الأوساط والبيئات التي خرجت منها ونشأت فيها.

أن تيودورا، الراقصة المتوجة، لم تنس ما عانته ولمسته من عار وفقر، وتبعًا لذلك لم تنس ما يعانيه غيرها من هذا القبيل، فكانت شديدة الرغبة في أن توجه الجانب الأكبر من عطفها إلى ضحايا الفقر والعار.

إنها تعرف الداء، وتريد أن تصف له الدواء، وتطبق العلاج بنفسها.

وقد سجل الإمبراطور جستنيان في مذكراته الخاصة أنه مدين لتيودورا زوجته بالوقوف على حقيقة ما يجري في بيزنطة، ومعرفة خبايا الأوساط التي انتشر فيها الفساد، وقد ساعده ذلك على سن قوانين جديدة، تشمل نصوصها جميع أفراد الشعب، ولا تهمل بيئة من البيئات.

وقوانين جستنيان الخاصة بالآداب كانت ولا تزال حتى أيامنا هذه، مصدرًا من المصادر التي يستوحيها المشترعون في أعمالهم الإصلاحية. وقد كانت تيودورا هي التي أوحت بتلك القوانين.

كانت الممثلة أسيرة للفرقة التي تعمل فيها، بل كان صاحب العمل يستعبدها، فهي لا يحق لها أن تتركه، بينما يحق له هو أن يطردها. فنصت

القوانين الجديدة على أن للممثلة الحق في أن تستقيل من عملها متى شاءت، وأن تطالب بتعويض إذا طردها صاحب العمل.

ونصت القوانين أيضًا على أن مهنة التمثيل لا تحرم على الممثلة أن تحترف مهنة أخرى إذا هجرت المسرح.. وكانت من قبل مرغمة على أن تبقى طول حياتها ممثلة. كما كانت هناك عقبات تحول دون زواج الممثلات، فأزالتها القوانين الجديدة.

وكان أصحاب المسارح والفرق يتعاقدون مع الممثلة على أن تعمل عندهم "مدى الحياة"، فألغى هذا النوع من التعاقد بنص صريح في القانون الجديد، وأصدر الامبراطور أمرًا دوريًا إلى حكام المقاطعات يلفت فيه أنظارهم إلى وجوب الإشراف على تنفيذ القانون، بحيث لا يقع غبن على ممثلة في أنحاء المملكة، وبحيث لا ترغم ممثلة على القيام بأي عمل لا ترغب فيه.. وإلى جانب عقوبة الجلد والنفيالتي فرضت على صاحب العمل الذي يخل بنصوص القانون، أو يسيء تطبيقه.. فرض عليه أن يدفع للممثلة المجني عليها غرامة مالية كبيرة؛ لكي تستطيع أن تنفق على نفسها ريثما تجد عملاً جديدًا. وهكذا أزالت تيودورامن طريق الممثلة جميع العقبات التي كانت تحول دون تمتعها بحرية العمل من ناحية، وبحقوقها كامرأة من ناحية أخرى. وصارت الممثلة تجد زوجًا يقترن بها إذا هجرت التمثيل، من غير أن تضطر إلى استجداء إذن بذلك من الامبراطور، كما حدث لجستنيان نفسه، لما أراد أن يعقد زواجه على تيودورا، فاستصدر أمرًا من عمه الامبراطور جستين، يسمح له بأن يحقق رغبته.

وأزيلت أيضًا جميع العقبات من طريق بنات الممثلات، فأصبحن

يتمتعن بجميع الحقوق التي تتمتع بها نساء الدولة الأخريات.

ولكن شيئًا واحدًا اشترطته تيودورا على الممثلة: هو أن تهجر التمثيل إذا أرادت أن تتزوج، وتتعهد بألا تعود إلى ممارسته على الإطلاق، أيًا كانت الظروف والأحوال.

وصرفت الإمبراطورة همها إلى معالجة مشكلة البغاء، وما كانت تعانيه العاصمة الموبوءة من انتشار المواخير فيها.

وقد كان أصحاب تلك المواخير يجيئون بالفتيات، والنساء من أطراف الإمبراطورية، بعد أن يغروهن بمعسول الآمال والوعود. وكانت هناك سوق للرقيق الأبيض، تباع فيها النساء بيع الأنعام، فعملت تيودورا على إصلاح تلك الحال، ومعالجة ذلك الداء الذي عانته هي نفسها قبل أن تجلس على العرش.

وبفضل الممثلة المتوجة، صدر قانون جديد بمرسوم إمبراطوري، يفرض عقوبة الإعدام على كل من تثبت عليه تهمة جر الفتيات إلى ممارسة الدعارة.. ثم صدر قانون آخر مكمل لذلك القانون بتحريم البغاء، وغلق المواخير في المدينة، ونفي أصحابها وصاحباتها إلى جهات نائية؛ لأن بقاءهم في العاصمة "مضر بالآداب العامة، ومخالف للقوانين".

وجاء في القانون أيضًا هذا لنص صريح:

"إننا نرغب في أن يعيش جميع رعايانا عيشة صالحة نظيفة شريفة، في حدود القوانين السماوية، والتشريعات المدنية. فإن الفضيلة وحدها تضمن للإنسان حياة كريمة في هذه الدنيا، والتمتع بالراحة في العالم الآخر"

ويعجب المرء لوجود مثل هذا النص في قانون صدر في عهد عرف

بأنه عهد فساد، وتفكك، وانحلال، ويزداد عجبه عندما يتأكد أن تيودورا–الممثلة السابقة، والمرأة الطائشة– هي التي أوحت بهذا النص، أو كتبته بيدها.

وقد عنيت تيودورا بالإشراف على تطبيق هذا القانون، ولم تتردد في الطواف في أنحاء عاصمتها؛ لكي تتأكد من أن المكلفين بذلك يقومون بواجبهم على أحسن وجه. فهى تريد أن تحطم بيدها القيود التي عرفتها من قبل وهي ممثلة، وأن تنتشل من بؤرة الفساد جميع النساء اللواتي كانت هي واحدة منهن.

وكانت تقول: "هناك نوعان من العبيد الأرقاء: العبيد الذين نشتريهم من الأسواق لخدمتنا، والنساء اللواتي يشتريهن الفاجرون للإلقاء بهن في غمرة الرذيلة"

وجمعت تيودورا النساء اللواتى كن يدرن بيوت الدعارة في العاصمة، وناقشتهن بنفسها. فطلبت منهن أن يعترفن صراحة بما دفعنه من مال النسوة الساقطات العاملات في بيوتهن، وبما دفعنه؟ هل أولئك النسوة الذين بأعوهن طمعا في كسب المال، أو مدفوعين بدافع الفقر والفاقة!

ثم أعطت تيودورا من مالها الخاص لصاحبات تلك البيوت خمس قطع ذهبية عن كل امرأة كانت عندهن، وهو الثمن الذي اشترينها به، وهكذا افتدت بمالها أولئك البائسات، وحررتهن من ذل الأسر والعار. ثم أعطت كل واحدة منهن ثيابا جديدة وقطعة من الذهب، وأعادتها إلى أهلها، أو أرسلتها إلى إحدى الأسر الكبيرة للعناية بها.

وبقيت في العاصمة طائفة من النساء اللواتي لم يجدن مأوى. فأنشأت

لهن تيودورا، من مالها الخاص ملجأ أرسلتهن إليه، ثم خصصت لهذا الغرض قصرًا قديمًا يقع على شاطئ البوسفور–من الناحية الآسيوية–، وحولته إلى دير سمته "دير التوبة"، وأوقفت عليه الأملاك والأموال، ودعت الراغبات في الترهب من أولئك النسوة إلى الالتحاق بذلك الدير، حيث وفرت لهن أسباب الراحة والطمأنينة.

ويقال أن بعض أولئك النسوة لم يطقن البقاء في دير التوبة، فحاولن الفرار بإلقاء أنفسهن من فوق الأسوار. وقد يكون هذا صحيحًا, ولكن هذا لا يقلل من أهمية المشروع الذي نفذته تيودورا، ولا يشوه نبل العمل الذي قامت به لإنقاذ الساقطات. فإن هذا العمل الجليل يشرف الإمبراطورة العظيمة، ويحمل أشد الناقمين على أن يغفروا لها بعض ذنوبها من أجله.

لقد أذنبت تيودورا وأجرمت... ولكنها من ناحية أخرى صنعت كثيرًا لمكافحة الذنوب والآثام. ولا شك في أنها، حين أوحت إلى زوجها بنصوص القوانين الخاصة بالنساء الساقطات، والممثلات، والراقصات، كانت تذكر ماضيها، وما ارتكبته هي من آثام. ولا شك أيضًا في أنها كانت مدفوعة بدافع التوبة والندامة، ورغبت في أن تكفر عن ماضيها الأثيم.

إن تيودورا أحبت بنات جنسها. وأرادت أن تحول الساقطات منهن إلى نساء سعيدات شريفات، ولا يهمنا أن تكون هي –في وقت من الأوقات– قد لطخت نفسها بالعار، فإن هذا لا يعد دليلاً ضدها، بل هو دليل على أن تلك الراقصة التي جلست على عرش بيزنطة، جديرة بالمنصب الذي شغلته، والمكانة التي ارتفعت إليها.

لم تقف تيودورا عند حد مكافحة الفساد ورفع القيود عن زميلاتها السابقات، الممثلات، والراقصات، وغيرهن، بل سعت أيضًا إلى إعطاء المرأة عامة، في جميع أنحاء الدولة، وفي جميع ميادين النشاط ونواحي الحياة الاجتماعية، جميع الحقوق التي للرجل، على أن تقوم بمثل تلك الواجبات التي يقوم بها.. فتيودورا بذلك تعد أول ملكة تولت إنشاء "حركة نسائية" كما تتصورها النساء في عصرنا هذا. وإذا كانت لم تذهب في محاولتها إلى النهاية؛ فذلك لأنها ماتت قبل الأوان.

وما أروع عمل تلك المرأة، التي عرفت الفساد ومارسته، ثم كافحته وانتصرت عليه. وأن إغلاق المواخير وتحريم البغاء لمن المفاخر التي يجمل بالمؤرخين أن يتوجوا بها اسم الامبراطورة التي قالت:

"عرفت البؤس فبسطت يدي إلى البائسين!"

الفصل الثالث

القديسة

تيودورا التقية

كان الدين يشغل مكانًا كبيرًافي حياة الامبراطورة تيودورا، ففي كل عيد من الأعياد الدينية الكثيرة عند طائفة المسيحيين الأورثوذكس، كانت الامبراطورة ترتدي أفخر ثيابها، وتضع الطيلسان على كتفيها، وتخرج في موكب فخم لحضور الصلاة في إحدى كنائس العاصمة الكبرى، مثل كنيسة آيا صوفيا، أو كنيسة الرسل، أو كنيسة القديس سرجيوس.

وفي داخل الكنيسة كانت تجلس الامبراطورة على عرشها، ومن حولها نساء الحاشية، فتحضر الصلاة إلى آخرها في خشوع وصمت، وتنهض أحيانًا، ثم تتقدم وبيدها شمعة مضاءة إلى الهيكل، حيث تركع على ركبتيها، وتصلى أمام الصور المقدسة، ومخلفات القديسين.

وكان موكب الإمبراطورة يجتاز الشوارع بين القصر والكنيسة، يتقدمه حاملو الشموع والصلبان.

وهناك احتفالات دينية أخرى كانت الامبراطورة تخرج من قصرها للاشتراك فيها، كالاحتفال بتدشين كنيسة جديدة، أو افتتاح دير جديد، أو زيارة مكان مقدس طلبًا للبركة والغفران، أو شكرًا لله على انتصار أحرزته الجيوش الامبراطورية.

وكذلك كانت الإمبراطورة تخرج من قصرها في ثياب الحداد؛ لتزور كنيسة أو ديرًا، مبتهلة إلى الله أن يقي البلاد شر وباء داهم، أو يرسل سحائب رحمته على البلاد لإنقاذها من المجاعة التي يهددها بها موسم مجدب.

وكان الناس في ذلك العصر يعتقدون أن سلطة الملك مستمدة من سلطة الله، وعلى هذا كان الأباطرة في بيزنطة يجمعون بين السلطة الزمنية، والسلطة الروحية على السواء.

وكان الامبراطور جستنيان يجد سرورًا وبهجة في الحياة على هذه الصورة، فهو شديد التدين إلى حد التعصب والاعتقاد بالخرافات، يؤمن بأنه موضع رعاية خاصة من الله، ويؤكد لخلصائه من رجال الحاشية أن السماء تصنع العجائب من أجله.

ومن الأقاصيص التي كان يرويها، أنه مرض مرة واشتد عليه الداء، وعجز الأطباء عن شفائه، فصلى وتضرع إلى الله، وإذا بالقديسين "دميانوس، وكويجوس"، اللذين مارسا الطب في حياتهما، ينزلان من السماء ليعالجاه في حجرته.

والواقع أن جستنيان مرض حقًا، وأصبح على عتبة الموت، ولكنه شفي فجأة وفي آخر لحظة. وهذا ما زاد في اعتقاد الناس بأنه شفي بمعجزة من السماء.

وقص جستنيان أيضًا على الناس القصة التالية:

كان مصابًا بتصلب في الشرايين، ولم يجد في علاجه أي دواء، وكان هذا الداء عضالاً، ولما لم يجد من يعطيه الدواء الشافي، زار ديرًا فيه مخلفات بعض القديسين، ولمسها، وصلى، وتضرع، ودهن مواضع الداء من جسمه بالزيت المقدس، وعاد إلى القصر فإذا به يشفى تماما.

وكان الامبراطور يتوجه بآيات الشكر إلى الله ليلا ونهارا على ما حباه به من عطف، وشمله به من رعاية؛ ولذلك كان شديد الحرص على حماية الدين، وعلى صيانة الإيمان من أن يتطرق إليه الوهن والضعف، وكان كثيير العناية بالكنائس وترميمها وتجميها، عدا ما كان يشيده من الكنائس والأديرة الجديدة، حتى امتلأت بها أنحاء الامبراطورية الشاسعة، وقد ظل طول حياته يغدق عليها الأموال بغير حساب من بيت المال، أو من ثروته الخاصة وثروة زوجته.

وكان جسانيان من أولئك الرجال المؤمنين المتمسكين بعقيدتهم لا يتزحزحون عنها. ولكنه كثيرًا ما كان يقحم نفسه في مناقشات ومجادلات دينية حول عقيدته. وقد تعددت المؤتمرات والمجامع الدينية التي اشترك فيها، وقضى الساعات والأيام يجادل الأساقفة وعلماء اللاهوت. وكان يلذ له بصورة خاصة، أن يناقش "الهراطقة" المعارضين في الأمور اللاهوتية والروحية، ويبدي في ذلك اطلاعًا واسعًا، يشوبه الغرور في كثير من الأحيان؛ لاعتقاده أنه لا يوجد في الامبراطورية خطيب أقوى بلاغة منه، ولا أوفر حجة، ولا أفصح بيانا.

وصفوة القول، أن الامبراطور كان واحدًا من أولائك العشرات الذين

ملئوا الدنيا ضجيجًا في ذلك العصر، بما أثاروه من مشاحنات دينية ومذهبية، شغلت بال البيزنطيين مئات السنين، وكانت في النهاية سببًا من الأسباب التي أدت إلى انهيار إمبراطوريتهم، وقد عرفت تلك المشاحنات في التاريخ باسم "المناقشات البيزنطية".

أما تيودورا.. فلم تكن أقل اهتمامًا من زوجها بالشئونالدينية، وما يرتبط بها من بعيد أو من قريب. ولم تكن تهمل شيئًا من واجباتها الدينية كإمبراطورة. ولم يغرب عن بالها في وقت من الأوقات أنها إمبراطورة دولة مسيحية شديدة التمسك بالدين، وأن كل تقصير من ناحيتها في أداء واجباتها الدينية سيفسر تفسيرًا قد يكون مضرًا بمصلحتها، ماسًا بمقامها، فضلاً عن أنها كانت في الواقع تقية ورعة بالمعنى الذي كان الناس في ذلك العصر يفهمون به التقي، والورع.

كانت كجميع البيزنطيات تحترم رجال الدين، وتجلهم،وتصغى إلى نصائحهم. على أنها كانت تختص بالجانب الأكبر من احترامها وإجلالها أولئك الرهبان المتعبدين، ذوي الإردية الطويلة، واللحى المسترسلة، وأولئك النسوة الصالحات، اللاتي هجرن مباهج العالم، وحبسن أنفسهن داخل الأديرة للعبادة والصلاة.

وكانت تعتقد أن الرهبان يكفرون بفضائلهم عن سيئات الناس، ويملئون بصلواتهم الفراغ الذي يتركه الذين لا يصلون.. كما كانت تعجب بالحياة التي يحيونها داخل أديرتهم وتصفها بأنها "تقرب بين الله والبشر، وهي مرحلة من مراحل الطريق بين الأرض والجنة"

ومرض زوجها مرة، فلم تكتف بالأطباء لعلاجه، بل استنجدت برجال الدين، وأرسلت في طلب الراهب السوري "زوراس"؛ لإنقاذ زوجها بصلواته,

وقد رأينا كيف طلبت من الراهب الفلسطيني سابا أن يساعدها بصلواته وتضرعاته لكي تلد للإمبراطور ولدًا يكون وليعهده، وكيف رفض ذلك القديس طلبها؟

ولها مع الناسك السورى "ماراس" حادث طريف. فإن ماراس هذا كان معروفًا بتطرفه في آرائه وتدينه العميق، وكان يهاجم خصومه بعنف لا يوجد عادة عند الرهبان والنساك، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره لما قرر أن يهجر العلم ويترهب. فقد عدل عن الزواج في اللحظة الأخيرة، وقال أنه يفضل أن يضع نفسه تحت حكم الله على أن يضع نفسه تحت حكم امرأة، وأن نير الرب خير ألف مرة من نير الزواج.

واسترعى الأنظار منذ دخل الدير ومارس الرهبنة بما كان يفرضه على نفسه من ضروب الحرمان والتقشف. ولكن هذا الناسك القاسي على نفسه، كان أيضًا قاسيًا على غيره، وقد وقف مرة في القصر المقدس منتقدًا بعبارات جارحة سلوك الإمبراطور والإمبراطورة. ومنذ ذلك الوقت أعجبت تيودورا بذلك الراهب الشاب الجريء، الفصيح،الملتهب غيره على الدين والفضيلة، وعولت على أن تتقرب إليه.

كان ماراس في نظرها قديسًا حائزًا على رضاء الله ونعمته، فدعواته لابد أن تجاب.

وعلى هذا عرضت عليه أن يبقى ضيفًا عليها، ووعدته بأن تضع تحت تصرفه بيتًا يقيم به في ركن من أركان الحدائق الواسعة، وفي المكان الذي يريده. ولكن ماراس رفض، ولما أرسلت إليه مبلغًا من المال سارع إلى مقابلتها، حيث ألقى بالنقود في وجهها أمام رجال الحاشية.

ولم تيأس تيودورا، فقد لحقت بماراس إلى المكان المنعزل الذي أقام فيه على شاطئ البحر، وطلبت منه أن يصفح عنها، فعاتبها على إرسال مال إليه لكي تغريه، أو تشتري رضاه وصلواته. وأخذت هي تلح عليه أن يقبل ما يكفي لنفقات معيشته، ولكنه رفض أيضًا.. ثم فر هاربا إلى مكان بعيد لينجو من ملاحقاتها.

واشتهر أمر هذا الناسك العنيد وذاع صيته في البلاد، فصار الناس يقصدونه لطلب بركته. وحدث مرة أن هاجمه جماعة من اللصوص، ودخلوا الخيمة التي كان يقيم فيها، وهددوه بعصيهم قائلين:

أعطنا المال الذي ترسله إليك الامبراطورة.

فأجابهم الناسك: "ليس عندي مال، والامبراطورة لا ترسل إلى شيئًا لأنني لا أريد منها شيئا"

ولكنهم لم يصدقوه، وضربه أحدهم بعصاه، فوثب الناسك القوى العضلات عليهم، وانتزع من أحدهم عصاه، وتمكن من التغلب عليهم وشد وثاقهم، ثم تركهم على تلك الحالة حتى اليوم التالي، فأطلق سراحهم قائلا لهم:

تعلموا ألا تعتدوا على رجل صالح لا يملك غير إيمانه بالله.

وانتشر خبر هذا الحادث في بيزنطة، فإزدادت شهرة ماراس، وزارته الإمبراطورة مرة أخرى، وأقنعته بأن يخرج من عزلته، فرضى بأن تشيد له تيودورا ديرًا يبيت فيه مع الرهبان الذين يختارهم، ثم أعطته مزرعة يعيش فيها هو وأولئك الرهبان. وبقى متمتعًا بحب الناس واحترامهم، حتى مات بالطاعون في سنة ٥٤٢م، فاحتفل البيزنطيون بدفنه احتفالاً قوميًا كبيرًا.

وأهدت تيودورا إلى بطريرك الاسكندرية تيودوسيوس قصرًا في مقاطعة ترافيا، كما شيدت ديرًا في داخل القصر المقدس لإقامة الرهبان، وبنت ملاجئ، وفنادق؛ لينزل فيها الفقراء الذين يمرون بالعاصمة, أو يجيئون إليها للبحث عن عمل.

ومن أشهر الكنائس التي شيدتها تيودورا، كنيسة الرسل, وكانت تقوم على المرتفع الذي بني عليه فيما بعد جامع السلطان مُحَمَّد بالقسطنطينية. وفيها مدافن قياصرة الروم، على أن الإمبراطورة تيودورا –برغم تقواها والأعمال الكثيرة التي تمت على يدها– كانت هدفًا لانتقادات جارحة من رجال الدين، وخاصة من أولئك الذين كانوا يعملون للإبقاء على الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية "الرومية والرومانية"، فقد كانت تيودورا تناصر الكنيسة الشرقية، ولهذا فإن معظم الذين أيدوها وبيضوا صفحتها في التاريخ، كانوا من أصدقائها أساقفة آسيا الصغرى, وسورية, وفلسطين,ومصر, وأفريقا. أما أساقفة بيزنطة, والبلقان, وإيطاليا، فإنهم حاولوا تسويد صفحتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

والواقع أن تيودورا قامت بدور كبير في تاريخ إقامة الكنيسة الشرقية, وتدعيمها في القرن السادس عشر الميلادى. ولولاها؛ لقضى على الأساقفة الانفصاليين؛ لأن زوجها الامبراطور كان يناهضهم.

ولابد لنا كي نستوعب فهم تلك الشخصية العجيبة، شخصية الامبراطورة تيودورا، الممثلة المتوجة، من أن نشير إلى ذلك الصراع الهائل الذي قام في وقت من الأوقات بين الكنيستين الشرقية والغربية، أو على الأصح الصراع بين الشرق والغرب، وهو الذي أدى في النهاية إلى انفصال الكنيسة الشرقية انفصالاً تامًا عن الكنيسة الأم الأولى في روما، التي أصبحت مركز الكثلكة، ومقر البابا رئيسها الأعلى.

ولا يتسع المقام هنا للدخول في تفاصيل المشاحنات اللاهوتية التي نشبت بين الأساقفة المسيحيين حول شخصية السيد المسيح، ومسألة الأقانيم، وغير ذلك مما يتصل بالعقيدة المسيحية ذاتها. ولكننا نكتفي بتلخيص الحوادث لإظهار الدور الذي قامت به تيودورا في تلك الحوادث الجسام.

فقد بدأ الصراع بين الفريقين في أواسط القرن الخامس للميلاد. وعقدت مؤتمرات ومجامع أسقفية لفض النزاع، لكنها كلها منيت بالفشل التام. ثم تطور الخلاف في النهاية فأصبح خلافا بين الشرق والغرب، وصراعًا بين عقليتين: العقلية الشرقية والعقلية الغربية. وكان أباطرة بيزنطة راغبين في الإبقاء على الوحدة بين الكنائس كلها، على أمل أن تظل سلطتهم شاملة أنحاء الامبراطورية الجديدة والقديمة، بما في ذلك روما مقر المسيحية.

وجاء عهد جستنيان، فسار الإمبراطور على خطة أسلافه وقاوم طلاب الانفصال والأساقفة الشرقيين القائلين بغير ما يقول به أساقفة أوربا وبعض زملاء لهم في أفريقا. ولكن تيودورا لم تساير زوجها في هذا المضمار، بل انضمت صراحة وجهارًا للأساقفة المعارضين والشرقيين، وأثبتت بذلك أنها تفكر تفكيرًا شرقيًا، وتحتفظ بميولها الشرقية، وتعطف على قوم شبت وكبرت بينهم. ويغلب على الظن أن تيودورا لم تتحزب للمعارضين عن عقيدة وإيمان، لا لأنها كانت من الناحية اللاهوتية الدينية ترى رأيهم، بل لأنها كانت تعطف عليهم لأنهم شرقيون، وترى أنه خير لإمبراطور بيزنطة أن يضحي بالوحدة مع روما، في سبيل الاحتفاظ بتأييد الأساقفة والرهبان في الشرق، وتثبيت ملكه في بيزنطة على أساس وحدة شرقية كاملة، لا على أساس وحدة واهية بين الشرق والغرب.

وكان لتيودورا أصدقاء كثيرون من بين رجال الدين في مصر وسورية، وهم الذين شجعوها وطلبوا حمايتها، وتأييدها، ودفعوها على التحيز والتحزب لطلاب الانفصال. وإليها يعود الفضل في منع الإمبراطور جستنيان من أن يستعمل سياسة الاضطهاد والإرهاب في سورية، ومصر، وأفريقا. فقد منعته من ذلكن بل حملته على أن يسن قوانين خاصة تطبق في هذه البلدان، وتحول دون وقوع تصادم بين أنصار العقيدتين: عقيدة يعتنقها الامبراطور ويؤيدها، وعقيدة تعتنقها الامبراطورة وتؤيدها.

ولكن خصومها كانوا كثيرين، وقد تمكنوا –برغم ما بذلته من جهود كبيرة– من إلحاق الأذى بأصدقائها وأنصارها الذين أيدتهم.

وقى ذلك الصراع محتدمًا بين الفريقين حتى بعد موت تيودورا.. ولكن الفريق الشرقي بدأ يتعثر بعد ذلك؛ لأن موت تيودورا كان ضربة قاصمة له. غير أن أثر الجهود التي بذلتها الامبراطورة في سبيلهم ظلت باقية حية ملموسة.

وموقف تيودورافي هذا الصدد هو الذي جعل الأسقفة الذين أيدتهم يواصلون نشاطهم ونضالهم خلال الأجيال التالية في سبيل عقيدتهم.

وأثناء ذلك الصراع العنيف الذي خاضت تيودوراغماره في الميدان الديني، أقدمت الإمبراطورة على أعمال على جانب عظيم من الجرأة والعنف، في سبيل القضية التي اعتنقتها وتريد تثبيتها. ومن ذلك أن البابا "أجابيب" مات في بيزنطة، فاغتنمت تيودورا الفرصة السانحة، وأرادت أن تعين في المنصب الذي خلا بوفاته أسقفًا من صنائعها. فاختارت لهذا الغرض الأسقف "فيجيل"، واتفقت معه على أن يخدم مصالحها وآراءها، ونادت به "بابا"، وأرسلته إلى إيطاليا حيث كان بليزيروس مرابطًا بجيشه.

ولكن الخطة فشلت في بادئ الأمر؛ لأنه قبل أن يصل فيجيل إلى روما، كان الأساقفة هناك قد انتخبوا للمنصب البابوي أسقفًا آخر يدعى "سلفيروس"، واحتدم النضال بين الفريقين، وتدخل الجيش البيزنطي في الأمر، وأرغم سلفيروس على الفرار، وأجلس فيجيل على الكرسي البابوي، وهكذا انتصرت تيودورا بقوة السلاح.. ومات سلفيروس في المنفى سجينًا معذبًا.

على أن تيودورا اختلفت مع البابا "فيجيل" الذي رفعته إلى منصبه

بقوة السلاح والمكيدة. فاعتقلته كما اعتقلت سلفه من قبل، وأرغمته على أتباع السياسة التي رسمتها له، وقبل أن يوافيها الأجل، كانت قد أعادت إلى أصدقائها الأساقفة المنشقين بعض ما خسروا في نضالهم ضد خصومهم في بيزنطة والمغرب.

الوداع الأخير

في التاسع والعشرين من شهر يونيو سنة ٥٤٨ الميلادية ماتت الإمبراطورة تيودورا بمرض السرطان، بعد أن عانت الأمرين من هذا الداء العضال.

واجتمع سكان القصر المقدس رجالاً ونساءً، حول جثمان الإمبراطورة الراحلة، لتوديعها الوداع الأخير، فغصت بهم قاعات الاستقبال الكبرى على رحبتها.. ثم حنطت الجثة، ووضعت على سرير من الذهب الخالص، المجلل بالأرجوان، والدمقس، والحرير. وأضيئت من حولها الشموع.

أن الامبراطورة ترتدى ثوب العيد الأحمر، وتضع على رأسها التاج، وتنتعل حذاء أرجوانيا. ولم يكن الموت قد طبع وجهها بطابعه بعد. فلون بشرتها مائل قليلا إلى الشحوب. ويخيل إلى الناظرين إليها أنها تنام نوما هادئا كالمعتاد.

ويعلو السرير رواق نصب خصيصًا لهذا الغرض، يغطيه الارجوان ويجلله، وتحليه الجواهر الزاهية الثمينة. وحول الرواق شموع تشتعل في

شمعدانات ضخمة من الفضة والذهب. وفي فضاء القاعة الواسعة الأرجاء، يتصاعد دخان الشموع فيمتزج بدخان البخور، ويختلط برائحة الأزهار والعطور النادرة التي نثرت هنا وهناك.

وعند قدميها، ركعت الجواري، والخادمات، والوصيفات باكيات نادبات. وخلفهن الخدم ورجال الحاشية يشاركونهن الندب والبكاء.

وفتحت الأبواب، فهرع سكان القصر والعاصمة لمشاهدة إمبراطورتهم للمرة الأخيرة، فمرت صفوفهم متراصة متتالية خاشعة أمام الجثة المسجاة على السرير الذهبي. وجاء البابا فيجيل، ضيف بيزنطة، وضيف الإمبراطورة، والمدين لها بمنصبه، وحوله رهط من الأساقفة والراهبات. كما جاء البطريرك ميناس الإسكندراني ومعه رجال الدين التابعون له، وأعضاء مجلس الشيوخ جميعًا، بأزيائهم الزاهية الرسمية، والنبلاء، والقضاة، وقواد الجيش، ورجال الحاشيتين، وموظفو القصر المقدس، ورؤساء المصالح الحكومية وتابعوهم.

وكذلك جاء لتوديع الإمبراطورة الراحلة كل زوجات القضاة، والحكام، والقناصل، والقواد، ووقفن بجانب الوصيفات، والخادمات، والجوارى، ثم مررن في صمت وخشوع أمام جثمان المرأة التي ملأت القصر حياة، ونشاطًا، ومرحًا حقبة من الزمن، ثم جاء دور الأمراء والأميرات من الأسرة المالكة، فمشوا وراء جستنيان الامبراطور الحزين الذي كان ينهنه كالأطفال، وقد شعر بأن الخطب جسيم، وبأن خسارته في زوجته لن تعوض، وحمل إلى المرأة التي أعجب بها فتزوجها وقدسها، هداياه الأخيرة:

حليًا فاخرة نادرة، وحجارة كريمة، وأقمشة مزركشة بالحرير والفضة وموشاة باللآلئ، وعددًا كبيرًا من التحف والقطع الفنية، وأدوات الزينة، والعطور، والمساحيق، وكل ما كانت تيودورا تحبه في حياتها.

ووضعت الهدايا مع جثمان الموتى في قبورهم، وهي عادة موروثة عن الأقدمين، وكانت في ذلك الوقت لا تزال متبعة عند الأسر الكبيرة في بيزنطة.

وانحنى الامبراطور وطبع قبلة على جبين الامبراطورة، ثم ضم بين ذراعيه الجثة الهامدة، وبللها بدموعه السخينة، وتمتم وداعه الأخير لعزيزته تيودورا .

وسمح لفريق كبير من السكان، يمثلون الأحياء، والبيئات، ومختلف الصناعات، بدخول القصر والمرور أمام الجثة، لتحيتها التحية الأخيرة باسم العاصمة الحزينة الواجمة.

وبإشارة من الإمبراطور، تقدم حملة النعش ورفعوا السرير الذهبي بين أيديهم. وخطا رئيس التشريفات خطوتين، وقال بصوت جهورى، مرددًا ثلاث مرات:

"أخرجي من هنا أيتها الامبراطورة، فإن ملك الملوك يدعوك إليه"

ومشى حملة النعش في الردهات والممرات، وتبعهم الموكب الرهيب.. وكان الشعب قد احتشد في الخارج، وملأ الميدان والشوارع المؤدية إليه، وقد أتشح الناس جميعًا بالسواد. وعلى الشرفات، وفي نوافذ البيوت وفوق

أسطحها، وقف الناس واجمين يذرفون الدموع، وقد حلت النساء شعورهن، وراح الأطفال ينشدون الأناشيد الحزينة.

وفي الشوارع، غطيت الجدران بالستائر والسجف، وفرشت الأرض بالرمل، ووضع الناس المباخر على الأبواب وأحرقوا فيها البخور بلا انقطاع. واصطفت الجموع على الجانبين، وركع كثيرون على الأرض وبأيديهم المسابح، أو المباخر.

وفي وسط ذلك الحشد الخاشع، مر الموكب في خطى وئيدة، يتقدمه الرهبان وحملة الشموع والصلبان، والمرتلون والمرتلات. وتتبعه فصائل من الجند، ينشدون أناشيد بعضها مفهوم وبعضها بلغات غير مفهومة.

وقد اشترك الخضر والزرق معًا في موكب تشييع الامبراطورة إلى مرقدها الأخير، ونسوا في ذلك اليوم خلافاتهم وأحقادهم، ومشى الموكب من القصر إلى كنيسة الرسل، للصلاة على الجثمان ودفنه في الضريح الذي خصص له في أقبية الكنيسة، بين أضرحة الأباطرة السابقين.

وبعد الصلاة، تقدم رئيس التشريفات مرة أخرى من الجثة وقال بصوته الجهوري:

"أيتها الامبراطورة ادخلي دار الراحة والخلد، فإن ملك الملوك، وسيد الأسياد، يدعوك إليه"

ثم تقدم الرجل ونزع التاج الذهبي عن رأس الامبراطورة الميتة، ووضع مكانه عصابة من الارجوان. وحمل الجنود النعش الذهبي، ووضعوه في

التابوت المرمى،الذي أوصت بصنعه تيودورا في حياتها، وأنزلوا عليه غطاءه الثقيل. وهكذا رقدت تيودورا بسلام رقدتها الأخيرة، وعاد الإمبراطور مطاطئ الرأس، محني الظهر إلى قصره، ومن خلفه رجال الحاشية، والاتباع، والأصدقاء.

وظلت العاصمة تبكي، وتنتحب أربعين يومًا. ولكن الحزن لم يشمل جميع البيزنطيين، فلما انتشر في أرجاء المملكة خبر موت الإمبراطورة العتيدة الداهية، تنفس خصومها الصعداء، واستعادوا في الحال آمالهم وثقتهم في نفوسهم، والمطامع التي وقفت تيودورا سدًا منيعًا في سبيلها.

عاد جان كابادوكي إلى بيزنطة، وما مضت أيام على عودته، حتى جعل يتبحبح أمام الناس بأنه استعاد عطف الامبراطور وثقته.

وكذلك أسرع أرطبان الأرمني إلى طلاق الزوجة التي فرضتها عليه الامبراطورة الراحلة، ورأى أن الجو قد خلا له، فراح يدبر في الخفاء مؤامرة ضد جستنيان، على أمل أن ينتقم لنفسه من الزوج بعد موت الزوجة.

وخرج جرمانوس وأبناؤه من عزلتهم، هائجين متحمسين على أمل أن يسترجعوا بعض ما فقدوه بسبب معاملة الإمبراطورة لهم.

وأنطونينا –أنطونينا نفسها– الوصيفة المحبوبة التي آثرتها تيودورا على كل من عداها من النساء.. أنطونينا هذه نسيت الماضي، وأسدلت عليه ستارًا كثيفًا، وجعلت تبحث عن علاقات جديدة، ومحالفات جديدة؛ لتحتفظ بنفوذها في القصر المقدس.

وخيل للناس جميعًا أن موت الامبراطورة لابد أن تعقبه حركة رجعية تشمل الميدانين السياسي والديني معًا. وبدأ أنصار الكنيسة المركزية يحرضون الإمبراطور على خصومهم –أصدقاء تيودورا–؛ لكي يقضي عليهم قضاءً تامًا، قبل أن يجمعوا صفوفهم من جديد.

وتهامس رجال القصر المقدس فيما بينهم قائلين: "أن الوقت قد حان لطرد الرهبان والنساك الذين جاءت بهم تيودورا، وأسكنتهم في دار فسيحة داخل أسوار القصر بعد أن حولتها إلى دير"

وتشجع خصوم الإمبراطورة، فنصحوا جستنيان بأن يرغم الأساقفة والرهبان المعارضين على العودة إلى حظيرة الكنيسة إرغامًا.

على أن هؤلاء جميعًا قد فاتهم أن الإمبراطور، كان يكن لتيودورا كل احترام، ووفاء، وإخلاص حتى بعد وفاتها، فلم يكن مستعدًا لأن يهدم شيئًا بنته في حياتها، أو يخرج على ما رسمته من الخطط، والنظم، والقوانين.

وكانت تيودورا قبيل موتها، قد دعت إليها الزوج الذي يعبدها، وقالت له:

"جستنيان، لقد أحببتك وأحببتني.. وهأنذا الآن أستعد للرحيل عن العالم.. فأقسم أمامي الآن بأنك لن تضطهد أحد ممن حميتهم أنا، ولن تسئ إلى أحد ممن أحسنت إليهم أنا، ولن تلحق ضررًا بأحد ممن كنت أنا سبب سعادتهم ونجاحهم"

وقد أقسم الإمبراطور، واعتزم احترام القسم.

لم تمت تيودورا فجأة بل بعد مرض طويل، وكانت تشعر بأن داءها عضال لا يرحم. ولهذا، فقد أدركت أن ساعتها الأخيرة تقترب، فاحتاطت للأمر، وأفضت إلى زوجها بما كان يجول في خاطرها من أفكار وآراء، وفي صدرها من مخاوف وآمال، وصمم جستنيان على أن يظل وفيًا لها بعد موتها، كما كان دائمًا وفيًا لها في حياتها، وهذا ما حدث فعلا. فقد واصل الإمبراطور تنفيذ سياسة التي وضعها بالاتفاق مع تيودورا. وفشل خصومها في محاولاتهم لحمله على تغيير خطته ومسلكه؛ إذ أغلق بابه في وجه جان كابادوكي ولم يعد إليه شيء من نفوذه السابق، ولم يغير رأيه في بليزيروس برغم مساعي زوجته أنطونينا.

واحتفظ جستنيان بالرجلين اللذين كانت تثق بهما ثقة عمياء، وهما: برسيماس، ونرسيس، وقد بقيت أنطونينا وصيفة في القصر؛ لأنها كانت تذكر الامبراطور بالعطف الذي شملتها به تيودورا.

أما جرمانوس وأبناؤه فقد عفا عنهم الإمبراطور، ولكنه لم يسمح لهم باستعادة نفوذهم وقوتهم.

واصطفى الإمبراطور من بين أفراد أسرته الشاب الذي كانت تيودورا نفسها تفضله على سواه: وهو جستين ابن أخيه، وزوج صوفيا ابنة أخت تيودورا، فجعله وارثًا للعرش من بعده.

ونفذ جستنيان أيضًا، في الميدان الديني، تعليمات تيودورا قبل موتها. فبدل أن يطارد الأساقفة الذين حمتهم، قربهم إليه، ودعاهم إلى القصر المقدس، وحاول أن يتفاهم معهم لإيجاد حل للخلافات المذهبية بالطرق

السلمية، وهذا ما طلبته منه تيودورا قبل موتها، فقد قالت له:

في الشئونالدينية، يجب عليك أن تسلك طريق التوفيق والتفاهم لا طريق الضغط والارهاب. فحاول أن تقنع خصومك، أو حاول أن تقتنع بآراء خصومك. فهذا خير من العراك الذي لا يؤدى إلا إلى توسيع شقة الخلاف.

وواصل الامبراطور اتصالاته، ومباحثاته مع الأساقفة الراضين، والناقمين على السواء، على أمل أن يحقق رغبة زوجته بعد موتها. ولكنه فشل، وظل الخصام مستحكمًا بين الطرفين، بل زاد اتساعًا بعد موت جستنيان نفسه.

وهكذا لم ينس جستنيان تلك المرأة الساحرة الجذابة، والشريكة الذكية النشطة، والإمبراطورة الجريئة الحكيمة، التي شاءت الأقدار أن تشاطره الأحزان والأفراح، وتخلد اسمه بجانب اسمها في سجل التاريخ.

وقد احتفظ في قصره بجميع الذين كانوا يعملون في جناحها من الوصيفات، والخدم، والحراس، وظل يلفظ اسمها ويردده في كل مناسبة، وكان هذا الاسم آخر كلمة نطق بها لسانه وهو على فراش الموت.

وإذا أراد أن يقطع على نفسه وعدًا، أو عهدًا، أو قسمًا، فباسم تيودورا كان يفعل ذلك. وكان دائما يقول: "أن الإمبراطورة الجميلة الحكيمة الطيبة، التي حملت معي أعباء الحكم، تصلي الآن من أجلى في السماء"

وقد تكون الإمبراطورة تيودورا قد اقترفت في حياتها من الأعمال المحرمة، أو السيئة مالا يتقف مع أخلاق الأبرار القديسين، غير أن جستنيان كان واثقًا من أن زوجته عاشت قديسة، وماتت قديسة، وأنها احتلت مكانها –بعد موتها– بين القديسين في جنة الخلد. وكان هذا أكبر عزاء له.

أما نحن، فإننا نكتفي بأن نقول:

"كانت تيودورا وحيدة عصرها، عصامية صنعت مصيرها بيدها، نبتت في بيئة مرذولة، وارتفعت منها إلى أوج المجد والسلطان، فتربعت على أعظم عرش في العالم، وكانت امرأة بارعة الجمال،وكانت إمبراطورة عظيمة، وكانت مصلحة واسعة الأفق، ولولاها لما احتل عهد جستنيان في التاريخ ذلك المكان الذي يشغله حتى الآن"

ثم نقول أخيرا: "أن تيودورا –الممثلة المتوجة– جديرة حقًا بأن يدون اسمها في سجل الخالدين"

الفهرس

مؤلف الكتاب ٥
مقدمة ٧

الفصل الأول: الممثلة

سلطان الشياطين..... ٢٥
عاقبة التوبة..... ٣٦
الممثلة المتوجة..... ٤٢
امرأة وأسطورة..... ٥٤

الفصل الثاني: الإمبراطورة

القصر المقدس..... ٦١
في قصر البوسفور ٦٥
سوق الأخبار ٨٣
تيودورا الزوجة ١٠٦
ثورة ضد العرش..... ١١٥
حينما تحكم المرأة..... ١٤٥
امرأة لها تاريخ..... ١٦٥

الفصل الثالث: القديسة

تيودورا التقية..... ١٨٣
الوداع الأخير..... ١٩٣